ميسرة أبو حمدية

لفظ أنفاسه الأخيرة وهو مكبل بالقيد، فأهدى البطولة زهرة وذكرى
ودرساً خالداً خلود روابي الخليل وأمواج عكا ونسمات يافا وحيفا.
ارتقى شهيداً ولحق بالرفيق الأعلى وهو يصارع سرطان الجسد
بعد أن واجه سرطان الاحتلال.
اعتقل وهو في الخمسين من عمره.. تلك حقيقة تؤكد أنه
مارس النضال يافعاً وشاباً وشيخاً.. وقليل من هم.
الشهداء لا يعرفون الفئوية
والبطولة الحقة تنمو وتزدهر في صحارى النقب كما في جبال الكرمل.

إن استشهاد البطل ميسرة أبو حمدية في أسبوع الآلام هزني بعنف شديد، وأحدث لي صدمة قاسية أشعلت في وجداني وفكري نيرانا من الحقد المقدس على هؤلاء الذين يبطشون بحياة البشر بهذه البساطة وبهذه السهولة، فمن أعطاكم حق سلب روح حياة إنسان بريء مناضل بهذه الصورة من الوحشية حيث كان البطل بين أيديكم بلا حول ولا قوة فسمحتم لأنفسكم بإزهاق روح بريئة خلقها الله لتكون حرة وأمانة ووديعة في هذه الدنيا.

في مطلع نيسان، وفي طريق الآلام أستحضر صورة السيدة العذراء أمنا مريم، عندما استقبلت كفن وليدها بعد أن صلبوه وعذبوه، فكان أول شهيد فلسطيني في التاريخ ضحى بحياته في سبيل الإنسانية. هذه اللحظات الدرامية العنيفة تتكرر في طريق الآلام وفي أسبوع الآلام مع شهيد فلسطيني آخر، يضحي بروحه وحياته من أجل حرية وخلاص شعبه، وها هي أم فلسطينية أخرى تودع شهيدا فلسطينيا آخر وتستقبل كفنه ليكون موته خلاصا لشعبه. ولدى استقبال زوجة ميسرة أبو حمدية (أم طارق) كفن الشهيد أحسستُ بان التاريخ يعيد نفسه ويكرر هذا المشهد المأساوي في حياة يسوع الفلسطيني. وتزداد موجة الألم في أسبوع الآلام التي يعاني منها الشعب الفلسطيني بموت الشابين عامر نصار وناجي بلبيسي حيث أطلقت عليهما النيران على حاجز عسكري قرب بلدة عنبتا، وذلك لمجرد إعلان الاحتجاج على رحيل الشهيد ميسرة، أو لمجرد التظاهر وإعلان الاستنكار لهذه الجريمة النكراء.

إني لأعجب كل العجب كيف تسمح الحضارة الإسرائيلية بارتكاب مثل هذه الجرائم الإنسانية التي تعبئ طاقات الثورة والحقد والانتقام على دولة دأبت على أن تبطش بالدم الفلسطيني بكل برود ولأتفه الأسباب.. ألا تخشون أن تحرقكم نيران الغضب والبغض؟ ألا تخشون من الأجيال الصاعدة التي تصبون في مشاعرهم وقلوبهم وعواطفهم آيات الحقد والانتقام؟

هل أنا في حاجة إلى تذكيركم بالعمليات الاستشهادية التي كانت نتيجة طبيعية للظلم والقهر التاريخي الذي كان يعاني منه الشعب الفلسطيني والشباب الفلسطيني البريء.

أين الضمير العالمي، وأين ثقافة الأمم، وأين اتفاقيات جنيف، وأين مبادئ الحق والعدل، وأين القانون العالمي لحقوق الإنسان، وأين الاتفاقيات الدولية، وأين الثقافة الأوروبية والأمريكية والحضارة الغربية، وأين الفكر والثقافة الفرنسية.. كل ذلك تدوسه زمرة من السجانين وتفتك بهذا الإنسان البريء الذي ينهش السرطان جسده فلا يتحرك ضمير لإنقاذه، ولا يتحرك مسؤول أو قائد ليأمر بتسليم هذا الإنسان إلى أهله لمعالجته.. قد يكون ميسرة مناضلا حمل بندقيته ودافع عن وطنه، فهل يستحق وهو مريض، عاجز، منهك، مدمر، لا يقوى على الكلام.. هل يستحق أن يتسلمه زبانية السجون جسدا ليعيدوه كفنا إلى ذويه؟

لست في حاجة لان أذكر المجتمع الإسرائيلي بجامعاته وإعلامه ومفكريه ورجال الدين فيه بان الوصايا العشر تنص في أول وصية نزلت على سيدنا موسى وهو في صحراء سيناء وجاء فيها "لا تقتل". وهذا الذي تمارسه آلة السجون الإسرائيلية قتل بكل المعاني.. قتل إنسان بريء، عاجز عن المقاومة، بل عاجز عن مجرد الوقوف.

لقد تتبعت صدى هذه الجريمة في الإعلام العالمي فوجدت أن العالم كله يستنكر هذه الجريمة ويدين من قاموا بها، ويؤكد أصحاب القلم والفكر أن مثل هذه المسلكيات التي تشكل عارا على المجتمع الإسرائيلي وتقيم سدودا من الكراهية بين الشعبين، حيث يفتك من بيده القوة وليس بيده الحق بمن يملك الحق ولكنه لا يملك القوة.

فارس فلسطيني آخر يترجل

ها هو فارس فلسطيني آخر يترجل..

إنه المناضل المقاتل ميسرة أبو حمدية الذي يشكل حالة إنسانية نضالية مميزة، وكل مناضل أو شهيد أو أسير هو في الحقيقة حالة خاصة وقضية مميزة وفصل رائع في سفر الثورة الفلسطينية.

هذه الكوكبة من المناضلين الأبطال هي بمثابة طليعة رائدة من الشعب الفلسطيني، تحمل مشاعل النور، والحرية، لتضيء درب العودة للجماهير الفلسطينية وكل فارس من أفرادها عبارة عن مجموعة من الخصائص والقيم والمعاني السامية التي تثري فكر ووجدان الأجيال الصاعدة التي تخفق في صدورها أماني الالتحاق بصفوف الثورة والثائرين، المتعطشة إلى النضال والفداء، المتطلعة إلى حلاوة الإيمان والكفاح والبذل والعطاء.

منارات تهدي إلى النور والحق

هؤلاء الأبطال هم منارات تهدي النور والحب واليقين إلى أبناء شعبنا وأجيالنا، فليس مهما ان يكون أي منهم من هذا الفصيل أو ذاك، أو من هذه الكتيبة أو تلك، المهم أنهم منارة وقدوة وقيم نضالية تضيء

الفضاء الفلسطيني، وتملأ سماء فلسطين بأريج البطولة والفداء لتجعل النضال أمنية، والشهادة غاية والنصر هدفا، وهم أولا وأخيرا يحملون السلاح دفاعا عن الحرية والاستقلال ضد الظلم والاستبداد وهو مبدأ تجيزه جميع الشرائع وقوانين الأمم المتحدة.

خذ بيديّ وهاتِ يدكَ

عندما لحق الشهيد ميسرة أبو حمدية بالرفيق الأعلى كان ذلك تتويجا لمشوار طويل من النضال الموصول، ضد كل مفردات القهر والغطرسة والعربدة التي تمثلها سلطات الاحتلال، ذلك لان أي شخصية سوية عاقلة حساسة على قدر من الثقافة والوعي والعلم عندما تتأمل واقع الشعب الفلسطيني لا بد لها أن تندفع في تيار النضال والثورة، استجابة لمبدأ إنساني بديهي وهو أن التصدي للظلم موقف أخلاقي قبل كل شيء، فكيف إذا كان هذا الظلم يطال أهلك وأرضك وعرضك.

وقد امتاز ميسرة منذ نعومة أظفاره بهذه الروح القتالية، وبهذه الشخصية الايجابية التي تؤمن بهذه المقولة العظيمة للرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم): "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان".

من وحي هذه الثقافة الإنسانية الرفيعة تفجر وعي ووجدان ميسرة، واندفع في طريق النضال، إلى أن كتب الله له الشهادة بعد أن دق أبواب الستين أو جاوزها.

بواكير الثورة والغضب

ولد الأسير الشهيد ميسرة أبو حمدية في مدينة خليل الرحمن عام 1948، ذلك العام الذي شهد نكبة فلسطين، حيث شنت قوات العدو حربا طاحنة على الشعب الفلسطيني، وشردته من مدنه وقراه بعد أن استباحت أرضه وعرضه، ويتمت أطفاله، ورملت نساءه وفتكت بشيوخه وشبابه وشيبه. ومن المؤسف الذي يبعث في النفس المرارة والحزن أن تفشل جيوش سبع دول عربية في أن توقف جحافل العدوان الذي كان يتم بغطاء ومؤازرة من جحافل الإمبراطورية البريطانية العجوز التي كانت منتدبة على فلسطين.

ولا شك أن أصداء هذه النكبة أثرت في وجدان وعقل ميسرة، فقد شب وترعرع وهو يكتوي بنيران هذه الكارثة التي لا تزال تسقى مرارتها على امتداد ستين عاما أو تزيد.

وما أن شب ميسرة وغادر سنوات الصبا حتى حصل على دبلوم في الالكترونيات من القاهرة، ثم التحق بكلية الحقوق في جامعة بيروت، ولكنه لم يستطع أن يواصل دراسته بسبب ظروف الملاحقة والاعتقال.

لكن حرصه على التعليم دفعه إلى دراسة التاريخ في جامعة الأقصى في غزة حيث كان يدرس بالمراسلة.

جندياً في صفوف الثورة

في عام 1968 انخرط ميسرة في صفوف الثورة الفلسطينية، وتم اعتقاله بتهمة الانتماء لاتحاد طلبة فلسطين وكان ذلك في عام 1969، كما تعرض أبو حمدية للاعتقال عدة مرات في الفترة الواقعة بين عامي 1969- 1975، وتنقل في السنوات من 1970 حتى 1975 ما بين الكويت وسوريا ولبنان والأردن. وكلما عاد إلى الضفة الغربية كان يواجه بالاعتقال الإداري.

وكان قد التحق بمعسكرات حركة فتح في لبنان وسوريا، فقد انتمى إليها عام 1970 أثناء دراسته في القاهرة. وخدم ميسرة في لبنان مقاتلا في كتيبة الجرمق وهي الكتيبة الطلابية ومن ثم جرى اعتقاله عام 1976 وفي عام 1978 تم إبعاده من السجن إلى الأردن.

في صحبة القائد خليل الوزير

ما أن وصل ميسرة إلى الأردن حتى التحق بالعمل في مكتب الشهيد أبو جهاد وكان ذلك عام 1979، ومن ثم عمل في مكتب الانتفاضة ابتداء من العام 1988 حتى عام 1998 حيث تدرج في المناصب العسكرية ليصبح برتبة "مقدم"، وقد رفضت إسرائيل عودته بعد اتفاق أوسلو عام 1993، ولكنه عاد في عام 1998 للضفة الغربية بعد تدخل الرئيس الشهيد أبو عمار، ومن ثم عمل في التوجيه السياسي برتبة عقيد لفترة قصيرة، ثم انتقل للعمل في الأمن الوقائي برتبة لواء وظل على رأس عمله إلى أن أحيل إلى التقاعد.

لائحة اتهام .. لائحة شرف

في 2002/5/28 تم اعتقال ميسرة على يد سلطات الاحتلال، ومن ثم قاموا بتوجيه لائحة اتهام طويلة ضده بروح النقمة والرغبة في التشفي وبعقلية لئيمة ماكرة إذ تضمنت لائحة الاتهام بعض التهم التي تعود إلى عام 1991 أي قبل اتفاقية أوسلو. وفي تاريخ 2005/6/2 حكم عليه بالسجن خمسة وعشرين عاما.. وبتاريخ 2007/4/22 لم يكتفِ الادعاء العسكري الإسرائيلي بالحكم، فاستأنف الحكم وتم الحكم عليه بالسجن المؤبد تسعة وتسعين عاما، وكان طبيعيا أن يواجه ألوانا من القهر والعذاب إلى درجة أن يسقط مريضا بالسرطان.

القمع المسموم باسم العلاج

وفي شهادته الموثقة يقول الأسير حسام شاهين: "إن العلاج في السجون إذا تم تقديمه، لا يقدم بهدف الإشفاء ولكن من أجل ضمان استمرارية حياة الأسير حتى يستوفي إنفاذ المحكومية الصادرة بحقه.

ومن المؤكد أن عيادات السجون الإسرائيلية تعد شريكا في ارتكاب جريمة الإهمال الطبي التي أودت بحياة العشرات من الأسرى أو ساهمت بتحويل العديد من الأمراض المؤقتة إلى أمراض مزمنة.

منذ اللحظة الأولى التي يزج فيها بالأسير إلى داخل المعتقل، يتم عرضه على طبيب عسكري يقوم بمعاينته، والكشف عليه وتحديد الأمراض ومواضع الضعف والعجز التي يعاني منها، حتى يقدم تقريره لجهاز المخابرات الذي بدوره يستغله للضغط على الأسير أثناء التحقيق معه بهدف انتزاع المعلومات منه

المخابرات الإسرائيلية عقليات مريضة

ومن المؤسف أن جميع أجهزة المخابرات الإسرائيلية وكافة القنوات وعناصر المؤسسة العسكرية المتشعبة والتي تكون مؤسسة للقهر جميعها تعمل كأذرع الإخطبوط للفتك بالأسرى والمعتقلين، وهي في الواقع تعاني من أمراض نفسية خطيرة تقوم على الحقد الذي يسكن قلب كل فرد فيها، إنهم يتجاهلون أن هؤلاء الأسرى إنما هم جنود محاربون في اشرف ساحة، وأنهم ينشدون حرية بلادهم، فليسوا أفاقين وليسوا مجرمين، وليسوا قتلة وإنما هم عدو شريف في ساحة شريفة وفي موقعة شريفة من أجل هدف

شريف، وان استبسالهم في القتال لا يجردهم من إنسانيتهم، ولا يمحو هالات الشرف والمجد التي يجب أن تجللهم، ومن حقهم على سجانيهم أن يكنوا لهم كل احترام وتقدير.. إن ثقافة الجندي المحارب المؤمن بالقيم الإنسانية تجعله يحترم خصمه ويعامله معاملة إنسانية مشرفة.

وأستذكر هنا وصية أبي بكر الخليفة الإسلامي الأول الذي كان يوجه قادته إلى ضرورة احترام حياة الخصم، وكان يؤكد عليهم بأن لا يقتلعوا شجرة، وأن لا يقتلوا شيخا، وأن لا يعتدوا على امرأة، وهذه الثقافة الرفيعة التي تنم عن الخلق النبيل لا نجدها لدى أجهزة القمع والاعتقال الإسرائيلية.

إن ثقافة العدو الإسرائيلي لا تعترف بهذه القيم ولا تؤمن بها، وتنظر إلى هؤلاء المعتقلين على أنهم مجرمون، تجردوا من كل إنسانية وأنهم فقدوا كل حس إنساني رفيع وتعروا من كل ثقافة سامية وخلق نبيل.

هذه الثقافة العنصرية البغيضة الضيقة التي تسير في اتجاه واحد ورؤية واحدة ضيقة هي التي تدفع إلى أعمال البطش والقتل والمحاصرة وسلب الأسير كل حقوقه الإنسانية.

إن فاقد الشيء لا يعطيه، والجندي الذي يتشرب ثقافة الكراهية والحقد، وتملأ صدره موجات البغض والانتقام سيغدو بكل تأكيد إنسانا مشوها حاقدا.

إن كل ما يجري في السجون والمعتقلات الإسرائيلية إنما هو إفراز طبيعي لقصور العقلية الإسرائيلية وجنايتها في حق الشعب الإسرائيلي والمؤسسة العسكرية الإسرائيلية نفسها.

ومن هنا نفهم لماذا رفضت إدارة السجون والمعتقلات أن تطلق سراح ميسرة رغم خطورة مرضه، ورغم أنه كان على حافة الموت عاجزا، ضعيفا، منهارا، يأكل السرطان خلايا جسمه، فإذا طالبت المؤسسات الفلسطينية بإطلاق سراحه قالوا انه قاتل ولا يمكن الإفراج عنه؟!

وكيف يكون قاتلا من كان مثقفا، متحدثا، بارعا ودارسا جامعيا يخوض معركة شعبه من أجل تحرير الأرض والإنسان.

درس من اعتقال شاليط

أريد أن أقول إن ثقافة احترام الخصم ومعاملته معاملة إنسانية إحدى القيم العربية بل الفلسطينية التي نحرص عليها، وهنا أستذكر أن الشهد أحمد الجعبري كان طوال خمس سنوات يعامل جلعاد شاليط معاملة إنسانية رائعة، وكان يحافظ عليه صحيا ونفسيا وبدنيا، وقد شهد بذلك شاليط نفسه، ذلك أن أحمد الجعبري "ابن حماس" وسليل فصيل يؤمن بتعاليم الإسلام ومبادئه التي تحث على إكرام الأسير ومعاملته معاملة إنسانية رفيعة.

وقد عملت المخابرات الإسرائيلية بأصلها! فردت المعروف للقائد أحمد الجعبري وفجرت سيارته بُعيد أن استردت ابنها شاليط بفترة قصيرة.

جنود حق وطلاب حرية

وينبغي أن تدرك عصابة الشيطان في المخابرات الإسرائيلية ومصلحة السجون أن معظم هؤلاء الذين تعذبهم وتضطهدهم وتدفعهم دفعا إلى أحضان الأمراض الفتاكة، إنما هم شباب مناضل، بل إنهم ذروة في الثقافة والعلم والأدب وهناك آلاف من الأكاديميين الذين وصلوا إلى درجات عالية من العلم والثقافة، بل إن من دخلوا السجن وكانوا على جانب ضئيل من الثقافة أصبحوا أكثر نضجا، وأكثر علما وثقافة. ومن

أبسط المبادئ الإنسانية أن يعاملوا على أنهم خصم شريف خاصة وأنهم قادوا المفاوضات معكم في كثير من عواصم العالم وكانوا أندادا لكم يحاورونكم بلغتكم وبأفكاركم ومبادئ حضارية.. فلتطلقوا سراحهم بدلا من أن تقتلوهم .. أطلقوا سراحهم واستجيبوا لنداء الرئيس الأمريكي أوباما الذي حثكم على أن تعيدوا وجهات نظركم في النظر إلى الشعب الفلسطيني، والاعتراف بدولة فلسطينية لكي يتوقف شلال الدم وهو أمر في متناولكم، ولتكن هذه المأساة نداء للعالم الحر لإطلاق سراح السجناء الفلسطينيين وإتاحة فرصة العلاج الفوري لمن يعانون من مرض السرطان والاعتراف بالشعب الفلسطيني بدلا من قتله استجابة لنداء الرئيس محمود عباس (أبو مازن)، الذي أكد انه سيذهب إلى آخر الدنيا من أجل الإفراج عن كافة الأسرى.

درس وأنموذج

والحقيقة أنه ليس جميع أفراد وكوادر المؤسسة العسكرية الإسرائيلية بهذه العقلية المريضة القمعية، فما أذكره تماما أن رئيس هيئة المحكمة العسكرية الإسرائيلية التي حاكمت الشاب السلوادي ثائر حماد الذي نفذ عملية عيون الحرامية وقتل ثلاثة عشر جنديا ومستوطنا ببندقية أمريكية قديمة عبر ثلاث عشرة طلقة، أذكر أن هذا الضابط أدى التحية العسكرية للشاب اليافع ثائر حماد تقديرا وإعجابا لمهنيته وشجاعته.

كما اذكر أن اسحق رابين، رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق قال في معرض حديثه عن يحيى عياش إنه على جانب عظيم من الموهبة والكفاءة. وخاطب أعضاء الكنيست قائلا: "لا أستغرب أن أجد يحيى عياش بينكم".

لكن هذه المصادفات هي الاستثناء، وإنما القاعدة أن تتغلب موجات الكراهية والحقد على كل شيء وأن تمتد أذرع الإخطبوط لتغتال سلامة وسلاسة وصفاء روح هؤلاء الأبطال المناضلين.

وكان الأسير الشهيد ميسرة أبو حمدية ضحية هذه العقلية، فرغم أن كل التقارير والنداءات والتوجهات كانت تطالب بالإفراج عنه باعتبار أنه يعاني من مرض خطير يوشك أن يزهق أنفاسه، إلا أن المسؤولين عن اعتقاله وصفوه بأنه مخرب وقاتل وأنهم لن يفرجوا عنه.

إن عين الحقد عين عوراء لا ترى الحقائق، فالبطل المناضل والخصم الشريف الذي يريد أن ينتزع الحرية لبلده ووطنه لا يمكن وصفه بهذه الصفات ولا يجب أن يعامل على هذا النحو المجرد من كل إنسانية وعدل.

الأيادي القذرة تعبث بقدسية الإنسان

ويروي الأسير المثقف حسام زهدي شاهين أن الشهيد "محمد حسن أبو هدوان" فكت القيود عن معصميه وقدميه بعد نصف ساعة من استشهاده.

وأن التأخير في تقديم المعالجة أودى بحياة الشهيدين "فضل شاهين" و"ماهر دندن".

وقد شاهدت الملايين القيود تحيط بمعصم وإقدام الشهيد ميسرة أبو حمدية الذي لفظ أنفاسه الأخيرة وهو على سرير المرض في مستشفى سوروكا في بئر السبع.

ومن الحقائق المذهلة في هذا الشأن اعتراف رئيسة الكنيست الإسرائيلي السابقة داليا ايتسيك بأنه تم إجراء تجارب طبية تجاوزت الألف تجربة على أجساد الأسرى الفلسطينيين لصالح شركات الأدوية المحلية والعالمية.

رسالة من رفيق

وفي رسالة وجهها الأسير حسن سلامة إلى الشهيد جاء فيها:

أخي أبا طارق، لم نعش معا، ولم نلتقِ، لكننا كنا قريبين بحكم الحياة المشتركة التي نعيشها، ويعيشها معنا كل الأسرى، حياة قد تحدثت عنها يوم أن كنت معزولا ومعي مجموعة من إخواني الأسرى.

ففي يوم الثلاثاء الثاني من أبريل/ نيسان كان هناك إضراب في سجن نفحة للتضامن معك، وسمح لنا فقط بالخروج ساعة واحدة للفورة، كان العدد قليلا، وكنت في إحدى الزوايا أمارس الرياضة، وإذا بصوت ينادي علينا من داخل الغرف: جاءنا الآن ما يلي، استشهد الأخ ميسرة أبو حمدية (أبو طارق)، كنت أتوقع ذلك، ومع هذا وجدتني واقفا مكاني لرهبة الحدث. قد يقول قائل لعل الموت أخافه، ومن فينا لا يخاف الموت.

نحن نموت كل يوم ألف مرة، ونحن نسمع آهات المرضى، ونعيش آلامهم وعذاباتهم.. ذاك مريض بالسرطان ينتظر دوره، وذاك ضغطه مرتفع، وهذا سكره منخفض، وهذا مريض بالفشل الكلوي، وذاك يحتاج للأكسجين، وهذا مضرب عن الطعام، تجاوز إضرابه كل الأرقام القياسية.

نحن نراهم يتعذبون ويصرخون: آه ما أقسى وأصعب أن تجد نفسك عاجزا أمام هؤلاء.

أرقام ودلالات

وباستشهاد أبو حمدية يرتفع عدد الشهداء الفلسطينيين الذين استشهدوا داخل سجون الاحتلال إلى 207 وفقا لمصادر في نادي الأسير الفلسطيني، علما أن عشرات آخرين من الأسرى استشهدوا بعد فترات وجيزة من إخلاء سبيلهم متأثرين بأمراض أصابتهم خلال اعتقالهم.

وقال وزير الأسرى عيسى قراقع: إن اشتباكات عنيفة اندلعت بين الأسرى وقوات القمع الإسرائيلية في عدة سجون على أثر انتشار نبأ استشهاد الأسير ميسرة أبو حمدية. وأشار عيسى قراقع إلى أنهم أعلنوا الاستنفار، واشتبكوا بالأيدي مع السجانين، وأغلقت الأقسام، وزج بالمئات من أفراد وحدات القمع للسجون بعدما أخذ الأسرى يطرقون الأبواب ويطلقون صرخات الله أكبر.

وقال قراقع: إن جريمة بشعة وخطيرة عن سبق إصرار ارتكبت بحق الأسير ميسرة بسبب الإهمال الطبي والتلكؤ بالإفراج عنه، وطالب بلجنة دولية عاجلة للتحقيق في ظروف استشهاده وتعرضه لإهمال طبي متعمد منذ سنوات، وحمل قراقع حكومة إسرائيل ومصلحة السجون المسؤولية عن هذه الجريمة.

وقال قدورة فارس رئيس نادي الأسير أن إسرائيل رفضت الإفراج عن أبو حمدية رغم تدهور وضعه الصحي ورغم اكتشافها بإصابته بمرض السرطان الذي وصل إلى منطقة النخاع الشوكي ولم تتحسن حالته رغم نقله إلى مستشفى سوروكا في بئر السبع. وحمل فارس إسرائيل المسؤولية الكاملة عن استشهاده بينما اتهمت عائلة الشهيد إدارة السجون بقتله ببطء.

من أوراق المحامي رامي العلمي

ويقول المحامي رامي العلمي محامي الأسير الشهيد ميسرة أبو حمدية إنه بعد زيارته له في سجن ايشل وجده في وضع صحي صعب جدا، وقد بدا ذلك عليه حيث أنني كان قد زاره سابقا قبل حوالي تسعة شهور، وفي هذه المرة بدا عليه الوهن والإرهاق الشديدان فكأنه أمام إنسان آخر حيث كان ضعيفا جسمانيا وجسديا، ولا يقوى على السير إلا بمساعدة أسرى آخرين، كما كان لا يقوى على رفع رجليه وكان في صوته بحة غريبة، وكان ضعيفا هامسا، وهو برفقة الأسير امجد كيها حيث كان يترجم وينقل كل ما يقوله ميسرة.

وكان هناك وعد بنقله إلى مستشفى سوروكا في بئر السبع ولكن إدارة السجون ظلت تماطل ولم تسمح بنقله إلا في اللحظات الأخيرة وبعد جهد كبير.

وقال الأسير انه في خلال الشهور الثلاثة الأخيرة انخفض وزنه وأصبح يعاني من خلايا سرطانية في منطقة الحلق وان كل محاولات علاجه لم تؤدِ إلى أي نتائج.

وقال الأسير أن العلاجات المختلفة التي كانت تقدم له كانت عبارة عن مسكنات لا تسمن ولا تغني من جوع، وأنه يناشد كل الأحرار في العالم والمؤسسات الحقوقية والمنظمات الدولية بالتدخل من أجل إنقاذ حياته ووقف سياسة الاستهتار الإسرائيلي بأرواح الأسرى الفلسطينيين ومحاكمة المسؤولين عن هذه الجريمة.

صرخة في وجه الغزاة القتلة

وكتب ياسر الزعاترة في صحيفة "الدستور" الأردنية:

كان بوسع الغزاة أن يعالجوه مبكرا، ولكنهم تركوا السرطان ينهش في جسده، وها هو باستشهاده يطلق صرخة في وجه الغزاة القتلة، وفي وجه من يصمتون على معاناة الأسرى لا سيما الكبار والأطفال والنساء والمرضى.

رحل ميسرة إلى ربه راضيا مرضيا بعد عشر سنوات من الاعتقال، وبعد عقود من النضال وهو الذي كان مؤمنا بربه، ومؤمنا بعدالة قضيته، محبا لإخوانه، مثقفا، رائعا كما يعرفه الذين عايشوه.

إن ميسرة أبو حمدية واحد من أبطال انتفاضة الأقصى، وهو بطل متميز لسبب بسيط هو أنه اعتقل وهو في العقد السادس من عمره، حيث استشهد في الثالثة والستين من عمره، مما يعكس إرادته الصلبة في استمرار النضال، وهو الذي بدأ رحلته مبكرا في صفوف الثورة الفلسطينية وحركة فتح وصولا إلى تدريبه لشبان من حركة حماس بعد عودته من الخارج ضمن من عادوا على أثر اتفاقية أوسلو، ومن ثم انتقاله إلى معتقلات العدو حيث حكم عليه بالسجن المؤبد مما يؤكد صلابة معدنه وحرصه على مواصلة النضال دون أن يلقي الراية ودون أن يستجيب لنداء الاتفاقيات المعقودة مع العدو.

باستشهاده يطلق ميسرة أبو حمدية صرخة من أجل إخوانه الذين أحبوه وتركهم خلفه يعانون سرطان السجون، وسرطان القتلة اليومي ويطلق صرخة من أجل أن يلتفت العالم إلى معاناتهم، ومن أجل أن يكون الشعب الفلسطيني أكثر وفاءا لهؤلاء الذين يدفعون أعمارهم خلف قضبان السجون.

سلام عليك أيها الشهيد البطل،

وسلام على من تركتهم خلفك يواجهون سطوة الجلاد،

وسلام على كل الشهداء ومن سيسيرون على دربهم إلى يوم الدين.

أضعف الإيمان

ويقول عيسى قراقع: إنه حان الوقت لكي تنضم فلسطين كدولة إلى محكمة الجنايات الدولية والى كافة المؤسسات والهيئات الدولية لوقف سياسة الجريمة المنظمة التي تمارس بحق الأسرى في السجون والتي ذهب ضحيتها الأسير ميسرة أبو حمدية.

وأشار قراقع إلى أنه أمام استمرار دولة الاحتلال في الضرب بعرض الحائط لكل المبادئ الدولية والإنسانية لم يعد أمامنا أي خيار سوى الدفاع عن حقوق الأسرى والتوجه إلى المؤسسات الدولية لتوفير الحماية لهم وملاحقة ومحاسبة المسؤولين الإسرائيليين عما يقترفوه من جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.

أم طارق .. ولا أقول وداعاً

في آخر لقاء بين الشهيد وزوجته أم طارق.. تقول السيدة :

كنا في الأردن نترقب حضوره إلى عمان ليستكمل العلاج، وكان يخالجنا أمل كبير في أن ذلك سيتحقق بين لحظة وأخرى ولكن فجأة أقرأ على شاشة التلفزيون أنه التحق بالرفيق الأعلى شهيدا مرضيا إلى جنة الخلد.

وتستدرك السيدة أم طارق وهي تلملم جراحها وتكفكف دموعها وتحاول أن تسيطر على كلماتها فتقول:

لا زالت كلمات الشهيد ترن في أذني، قال لي منذ اللحظة الأولى إنني عشت طوال عمري مشروع شهيد. فقلت له بعض كلمات مشجعة وأنا أغالب دموعي. فقد كان في حالة صحية تدعو إلى القلق. وجاء ولدنا علاء آخر أبنائي وجلس يتحدث معه ولكن علاء لم يستطع أن يتواصل مع والده من خلال الكلام لان المرض كان قد تمكن من حباله الصوتية وحنجرته، ولكن الكلمات القليلة التي التقطها علاء ظلت زادا فكريا خالدا في نفسه لا يمكن أن ينساه لوالده الذي عاش بطلا ومضى بطلا.

* * *

لقد تأثرت باللقاء الأخير الذي جمع بين الشهيد وبين أسرته، وأتصوره يخاطب فلسطين في شخص رفيقة عمره وشريكة حياته:

خُذيني تحت عينيكِ
خذيني لوحة زيتيَّةً في كوخ حسراتِ
خذيني آيةً من سفر مأساتي
خذيني لعبة... حجراً من البيت
ليذكر جيلُنا الآتي
مساربه إلى البيتِ!
فلسطينيةَ العينين والوشمِ
فلسطينية الاسم
فلسطينية الأحلام والهمِّ
فلسطينية المنديل والقدمَين والجسمِ
فلسطينية الكلمات والصمتِ

فلسطينية الصوتِ
فلسطينية الميلاد والموتِ
حملتُك في دفاتريَ القديمةِ نار أشعاري
حملتُك زادَ أسفاري
وباسمك، صحتُ في الوديانْ:
خيولُ الروم!... أعرفها
وإن يتبدَّل الميدان!

(2013/4/5)

عبد الناصر فروانة

مؤسسة في شخصية..إنسان فرد محرراً وكاتباً ومموِلاً ومتواصلاً مع كل فلسطيني وعربي.

كان طفلا في الثالثة من عمره عندما اعتقل الجيش والده من مكان عمله

واقتحموا ليلاً بيت العائلة ليزرعوا في وجدان الطفل ذكريات لا تنسى.

بعد صفقة جبريل ولأول مرة منذ ما يزيد عن خمسة عشر عاماً

يلتئم شمل الأسرة: الأب الذي أمضى خمسة عشر عاماً والأخ الذي كان في رحم أمه.

المناضل والأسير السابق الذي أسس (فلسطين خلف القضبان) وتحول إلى مرجع لقضية الأسرى وأحوالهم وتعدادهم وحكاياتهم وأسرارهم.

إنسان حر تؤرقه قضية أسرى الحرية الحياة قضية وموقف، وما أتعس ذلك الإنسان الذي يمضي في حياته بلا موقف أو قضية، ويؤكد لنا تاريخ الحضارة والبشرية، أن هناك عشرات الأعلام ممن حفظ التاريخ أسمائهم لأنهم كانوا علما على قضية معينة، فغاندي مثلا، علم على النضال السلمي، وياسر عرفات علم على الدفاع عن العدل ضد الظلم، ومانديلا علم على المطالبة بالمساواة ومحاربة العنصرية، وعمر بن الخطاب علم على العدل، وعمر المختار علم على النضال من اجل الحرية والتحرير، وعبد الناصر علم على القومية العربية، وسبارتكوس علم على مقاومة نظام العبودية والعبيد، والشيخ أحمد ياسين علم على إرادة المقاومة وتحدي العجز، وهيلين كلر علم على قهر العجز والضعف.

لكل إنسان قضية وموقف، كما يقول أسحمد شوقي:

"الناس ساع في الحياة لغاية ومضلل يجري بغير عنان"

ولا يشترط في صاحب القضية أن ينقش اسمه على صفحات الخلود، ولا يشترط فيه أن يقضي شهيدا في سبيل قضيته ومبدأه، يكفي أن يكون للإنسان هدف واضح محدد، يُمضي كل حياته في سبيله فلا يأكل ولا يشرب ولا يتعاطى في الحياة، إلا وهذا الهدف ملء جوارحه وحواسه، ماثل أمامه في كل كبيرة وصغيرة من شؤونه وشجونه.

إنه بذلك يكسب حياته معانٍ نبيلة، ويجعل لوجوده قيمة وهو قد يعيش فترة طويلة أو قصيرة من الزمن، ليس ذلك مهما على الإطلاق، المهم، أنه عاش حياة خصبة عميقة عريضة غنية، لا تقاس بالأيام

والأسابيع والشهور والسنين، وإنما تقاس بما أنجزه وحققه لنفسه وأمته ولكل من حوله، إنها تقاس بالقيم العظيمة النبيلة التي زرعها في حدائق الإنسانية لتفيض على إخوته في الإنسانية بالخير والجمال والعطاء لتعطي الدفء والحنان والسلام والإحساس بالرضا والسعادة التي يعيش في ظلالها، هؤلاء الذين نحبهم ونعيش من أجلهم ولا معنى لحياتنا بعيدا عن منبتهم وحياتهم ووجودهم، فالعطاء قيمة عظيمة من القيم التي طغت المفاهيم المادية والحسية عليها.

وإذا كان هناك من يجد اللذة في أن يأخذ فان هناك بعض الطاقات الإنسانية التي تجد سعادتها في أن تعطي، وقد استحضرت هذه المعاني النبيلة وأنا أتتبع مسيرة المناضل الإنسان عبد الناصر فروانة .

لقد ملأت هذه الأفكار وجداني وعقلي، وأنا أتأمل حياة عبد الناصر فروانة المناضل والأسير السابق الذي وهب كل طاقاته، وقدراته لقضية إنسانية وقومية، من أهم قضايا حياتنا المعاصرة، قضية الأسرى.

فنحن شعب فلسطين، تعيش في وجداننا وفكرنا وحياتنا قضية أرضنا التي اغتصبت والتي فقدناها، في حادثة سير على حد تعبير محمود درويش، وكل ما بذلناه، ونبذله من أجل استرجاع فردوسنا المفقود، يدخل ضمن، أن الإنسان قضية، وأي قضية أروع وأهم من استرداد أرضنا والعودة إلى مدننا وقرانا.

ولكنة الإنسان الفلسطيني الأسير، الذي فقد حريته وهو يحارب من أجل الحرية والكرامة والعزة والانتصار، هذا الإنسان، الذي ينظر إليه العدو، نظرة ملؤها القصور والغباء والعنصرية، فلا يتعامل مع هؤلاء الأسرى باعتبارهم، محاربون من أجل الحرية، وإنما يصنفهم بطريقة جاهلة غبية، مغرورة، حمقاء، فيجردهم من شرف النضال والفروسية والبطولة.

وهذه هي أهم قيمة أخلاقية وإنسانية ووطنية آمن بها الإعلامي الرائد عبد الناصر فروانة، إن محاربة الرواية الإسرائيلية التي تسوقها للإعلام الغربي، عن أبطالنا الأسرى، ووصفهم بنعوت أبعد ما تكون عن الحقيقة هي أهم ما يؤمن به ويناضل من أجله.

لا بد أن تصل الرواية الفلسطينية، بكل أبعادها وحقائقها ومفاهيمها إلى العالم، فإذا كنا حريصين على إطلاق سراح أسرانا، فلا بد إن نجد الوسيلة، وان نعمل بمنطق وعقلانية وحسب إستراتيجية مستوحاة من التاريخ والواقع، ولا بد أن يكون صوتنا قويا واضحا صريحا مسموعا، فليس أعجب من أن يكون خصمنا على باطل وينتصر، ونكون نحن على حق ونتراجع وننكمش.

وأقول بصدق، إن قضية أسرى الحرية، هي أكثر ما يؤرقني ويستفز قلمي ويدعوني للكتابة، ويخيل إليّ أني لو كتبت كل يوم مقالة عن الأسرى، لما وفيتهم حقهم، وكيف لي أن اشعر بالرضا والطمأنينة وأنا أعبر عن وجداني بالكلمات والحروف، في حين يعبرون هم عن قضيتهم بالدم والجراح والألم، والموت.

من هنا وجدتني في حالة توافق وانسجام روحي وفكري وعاطفي مع هذه الرسالة الخطيرة التي وهب عبد الناصر نفسه له.

لقد جند حياته وفكره وقلمه، من أجل الدفاع عن "الأسرى" وأنت تلمس ذلك في تعبيراته وكلماته، وتدفق أفكاره وفي صدق نبراته وملامح صوته، وحرارة انفعالاته وإذا كان القدماء يقولون إن الأسلوب هو الرجل، فلا شك أن عبد الناصر فروانة، بأسلوبه وأفكاره في كل ما يكتبه يعبر عن الأسرى.

ذاكرة ليست للنسيان

يقول عبد الناصر: كنت طفلا صغير في الثالثة من عمري، عندما واجهت أصعب تجربة قد يمر بها طفل في العالم، لا زلت أذكر كيف اقتحم الجنود المدججين بالأسلحة والرشاشات بيتنا، وأخذوا يفتشون ويكسرون ويحطمون، وسط أصوات الهلع والخوف وموجات الرعب التي اندلعت بالحارة كلها، ودموع أمي وهلعها وبكائها.

لقد انطبعت هذه المناظر المرعبة على صفحة ذاكرة الطفل الوليد، وظلت مغروسة في كيانه طوال حياته، كان والدي قد اعتقل وهو يعمل في محله لتنجيد السيارات. وبعد اعتقاله جاء التتار ليلاً لتفتيش البيت وبث الرعب في نفوسنا فغرسوا في عقلي ووجداني هذه الذكرى التي لن تمحى.

وعرفت بعد ذلك أن الجيش هاجم بيتنا في بداية شهر آذار في 1970/3/3، علما أن ميلادي كان في 1967/5/10.

وكان اعتقال والدي، قد جعلني أعيش حياة اليتم ووالدي على قيد الحياة، فقد حرمت من حنانه وعطفه ورعايته لي ولإخوتي. لقد ذقت اليتم، بصورة فريدة، على يد جلاد لا يرحم، غابت شمس والدي، وحرمت من إطلالته وحبه ورعايته، ورغم أني بعد ذلك تنقلت بين العديد من السجون والمعتقلات، ولكن ذكرى اعتقال والدي، ومهاجمة الجيش لبيتنا ظلت ماثلة في ذهني وفكري حتى الآن.

الأسرى قضية عمري

دخلت بعد ذلك كل سجون دولة الاحتلال، في قطاع غزة وفي بئر السبع والمجدل والرملة، وذقت كل ألوان الاضطهاد والمعاناة، والتقيت بمئات بل بآلاف المناضلين والثوار والقيادات، وتشربت ثقافة المقاومة وتعمقت في أساليب النضال وخبرت فقه الثورات، ودرست الحركات الثورية وارتويت من نبع الفكر الإنساني الثوري على مر العصور، ومن شتى المشارب، وعشت أدق تفاصيل حياة الأسير الذي تُسلب حريته، ويبعد عن أهله ووطنه وذقت حلاوة قوة الإرادة وصلابة المواقف وصمود الرجال وكبرياء الأحرار، وكل ذلك غرس في نفسي، تلك الشعلة الثورية الرائعة، لمناصرة الأسير، وإذا كان المتصوفة يقولون لا يعرف الشوق إلا من يكابده، فاني عايشت بكل صدق وحرارة حياة الأسير، وعرفت، بالمعايشة والمكابدة، مدى ما يلقاه جنود الحرية من الأسرى، وراء القضبان فأخذت عهدا على نفسي، أن أكرس كل حياتي، للدفاع عنهم، فهم قضية عمري.

ولا أخالني أذهب بعيدا، إذا قلت إن كثيرين يشغلهم هاجس الأسرى، ويقض مضاجعهم، ويؤرق ليلهم، وينغص عليهم صفو حياتهم لكن الذين يمضون في حياتهم متناسين جراح ومعاناة هؤلاء الأبطال هم الأكثر.

عائلة في ظلال الأغلال

لم يكن أبي هو المعتقل الوحيد في العائلة، ولكنه كان الرائد..

كان هو البداية، فقد كان معتقلا لمدة خمسة عشر عاما وثلاثة شهور، ودخل بعد تحرره بأشهر قليلة أخي جمال لمدة 5 سنوات قبل أن يعتقل لمرة ثانية لمدة سنتين، ومع بداية الانتفاضة الأولى دخلت السجون أربع مرات وأمضيت فيها 6 سنوات.

إن سرد تفاصيل الاعتقال التي حدثت في أسرتي، يبعث الأسى والحزن، ويقدم صورة حقيقية لمأساة حياتنا كشعب وكأسرة، ولكن هناك لحظات، لا أستطيع أن أنساها، وهي تأتي بترتيب قدري، كأنها فصول أو حلقات في مسلسل محكم من المآسي والكوارث الإنسانية لأسرة فلسطينية، تعد أنموذجا لما حل بالشعب الفلسطيني.

عندما أفرج عن والدي بعد أن أمضى في المعتقل خمسة عشر سنة في صفقة التبادل التي تمت بين أحمد جبريل وإسرائيل في 1985/5/20، كنت يومها أعمل في مدينة يافا، وعندما اتصلوا بي بالهاتف وأبلغوني الخبر، لم أصدق، ولكني عاودت الاتصال بمن أثق بهم، فعلمت أن الخبر صحيح، فأسرعت عائدا إلى غزة لألتقي بوالدي الذي خطفوه مني وأنا في الثالثة من عمري ولأراه وأرتوي منه بعد خمسة عشر عاما .

لأول مرة تجتمع الأسرة

أبي.. العائد من اعتقال تواصل خمسة عشر عاما، وخالي الذي حكم بخمسة عشر عاما، وابن خالتي الذي أمضى خمس سنوات في الاعتقال، وثلاثتهم أفرج عنهم في صفقة احمد جبريل، وأخي جمال الذي كان في رحم أمه، وأمي التي جفت دموعها لكثرة البكاء، والتقينا جميعا لأول مرة كأننا في حلم خيالي.

ذلك هو المشهد الثاني، في كتاب حياتي، الأول اعتقال والدي ومهاجمة الجيش لبيتنا وأنا في الثالثة من عمري، والثاني اجتماع أسرتي حول والدي بعد أن خرج من معتقل العدو، بعد خمسة عشر عاما.

قدري .. أن أعايش جراح الأسرى

ولد عبد الناصر عوني فروانة يوم 1967/5/10 في حي الزيتون بمدينة غزة وأنتقل بعدها مباشرة للعيش في حي الدرج، ولا شك أن شهر حزيران عام 1967 يحمل ذكرى مثقلة بالأسى والحزن والانكسار، فهي السنة التي حلت بها النكسة التي ألقت بظلالها على تاريخ المنطقة العربية، ولا زالت حتى اليوم.

ولكنه قدري الذي وضعني على خريطة الأحزان، ومشوار الألم في رحلة معاناة تواصلت طوال خمسة وأربعين عاما، أمضيت معظم أيامها ولياليها، على أبواب السجون وبين جدرانها ، وفي مواكبة حياة الأسرى، وحمل أمانة الدفاع عنهم، فهم أهلي وحياتي وبعض قلبي ومشاعري .

وعندما أستذكر شهر حزيران عام 1967 اشعر بأنه محفور على صفحات قلوب الجيل الناصري بمداد من الدم والنار والقهر والغضب والإحساس بالانكسار، ومن ثم فان أبي سرعان ما لملم جراحه وعلا على مشاعر المرارة والهزيمة، لقد رفض الجيل الناصري كله من المحيط إلى الخليج التسليم بالهزيمة، ورفض أن يكفر بجمال عبد الناصر أو يتخلى عن حلمه وفارسه وقائده.

رفض الجيل الناصري في الستينيات وهو جيل الحلم والأمل والفن، والكتاب والمبادئ والمسرح والصحافة والجامعة، جيل صلاح جاهين وعبد الحليم حافظ وكمال الطويل وعبد الرحمن الابنودي وعبد الرحمن الشرقاوي، وأحمد بهاء الدين وإحسان عبد القدوس، ويوسف شاهين، ومحمود السعدني، وصلاح عبد الصبور، ومحمد الموجي، ورجاء النقاش، وأحمد فؤاد نجم، والشيخ إمام عيسى، ومئات المفكرين والمبدعين رفضوا التسليم بالهزيمة والتفوا حول عبد الناصر، حول الأمل والحلم والإيمان بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة.

وكان أبي واحدا من مئات الآلاف من الشباب في غزة الذين رفضوا التسليم بالهزيمة، وظل إيمانهم بجمال عبد الناصر علة خفاقة في صدورهم، جمال عبد الناصر الذي لملم الجراح وواصل الثورة والنضال وبدأ يتجاوز سلبيات النكسة وذلك بإعلان حرب الاستنزاف بعد فترة وجيزة من انتهاء حرب حزيران.

أبي ثائر من الرعيل الأول

من هنا أستطيع أن أقول كيف انتظم أبي في العمل الوطني، وكيف حمل البندقية وكيف تم أسره واعتقاله بعد شهور قليلة من جراح النكسة، إذ تم اعتقاله في 1970/3/3.

وكانت والدتي حاملا في شقيقي جمال الذي ولد في 1970/8/10 وكانت وصية أبي لأمي إذا أنجبت ولدا أن تسميه "جمالا"، وبهذا يظل اسم البطل الثائر يرن في أصداء بيتنا، فشقيقي جمال وأنا عبد الناصر.

حيث نشأ وترعرع خليل وصلاح

في غزة هاشم وفي حي بني عامر خلف مدرسة الزهراء بمنطقة الدرج حيث ترعرع ونشأ خليل الوزير (أبو جهاد) وصلاح خلف (أبو اياد) نشأت وترعرعت، وكان هذان المناضلان فيما علمت بعد ذلك من أكثر النماذج الثورية في تاريخنا المعاصر صفاء ونقاء وثورية، كلاهما نشأ وترعرع في أحضان غزة، خليل الوزير مسقط رأسه الرملة، وصلاح خلف مسقط رأسه يافا، وكلاهما تشرب مبادئ الثورة والنضال منذ ان درج على رمال غزة وسهولها وهضابها، وتغذى من شمسها وهوائها وأمضى شطرا من صباه يستنشق عبير شواطئها، وينهل شذى الفداء والبطولة من أمواج بحرها على شواطئ الأبيض- الأزرق، وكلاهما كان معلما.

كان صلاح خلف مدرسا للغة العربية في مدرسة خالد بن الوليد ومن ثم في مدرسة الزهراء، وكان خليل الوزير مدرسا للجغرافيا وكانت فرص الحياة المادية في تلك الفترة متاحة لمن يعمل في التدريس، لكن الشابين الثائرين كانت عيونهما على فلسطين، على الرملة ويافا، على طريق البندقية والثورة.

ترى أين ذهب ذلك النقاء الثوري، ذلك الحلم الرومانسي المجبول بالانتماء والدماء وصدق الثورية.. أين ما كانوا عليه، وأين ما صرنا إليه في فتح وحماس والنهج النضالي العذري في كافة فصائلنا.

أسرة غزة على درب النضال

ويقول عبد الناصر فروانة: نحن أسرة تشكل أنموذجا للفكر القومي، والنهج الثوري الذي أشعل الثورة بقيادة ياسر عرفات ورفيقاه صلاح خلف وخليل الوزير.

فقد انضم أبي للثورة بعد شهور من نكسة حزيران واعتقل خمسة عشر عاما وثلاثة شهور، وأخي جمال اعتقل وهو في السادسة عشرة من عمره ليأخذ حكما بخمس سنوات قبل أن يعتقل ثانية بعد تحرره بأربعين يوما فقط ويقضي سنتين أخريتين، وأنا تنقلت في السجون والمعتقلات على امتداد ست سنوات، وخالي كان معتقلا وابن خالتي كان مناضلا وكان في سجون الاحتلال، ومن ثم اعتقل العشرات من أقربائي.

لقد اكتويت بنيران الاحتلال وأساليبه وممارساته وشربت حتى الثمالة مرارة العدوان وقسوته، ورأيت بأم عيني كيف يسمح الإنسان لنفسه أن يسترق أخاه الإنسان، وكيف يكفر بمبادئ العدل والحق

والإنسانية ويستبيح لنفسه سرقة أرض غيره والعدوان على شرائع وسلوكيات تطوح به بعيدا عن مربع الإنسانية وتجره إلى مربع الشيطان.

لقد أدت هذه المقدمات جميعها إلى إيماني بان الأسير (ظاهرة إنسانية نضالية نبيلة وبأنه من معدن شفاف محارب في سبيل الحق، ومقاتل يدافع عن حق بلده وأرضه ووطنه، وأن أضعف الإيمان أن نقتدي به وأن نسير على خطاه، وأن ننهج نهجه في التضحية والبذل والجود بالروح من أجل الوطن، فإن لم نستطع أن نفعل ذلك فلا أقل من أن نقف مدافعين عنه في ميادين الرأي العام وقضايا الإنسانية لإطلاق حريته واستعادة إنسانيته وكسر جبروت من يلقي به وراء الشمس.

وعندما أستذكر والدتي (صبحية شاكر السنداوي) من مدينة يافا أذكر تلك الأيام أنها كانت ولا تزال سيدة فلسطينية صابرة، مناضلة، كتلة من المشاعر والأحاسيس، تقف بجانب والدي وتحملت مسؤولية رعايتنا وهو في المعتقل، فكانت لنا بمثابة الأب والأم، وكانت شجرة العائلة قد طرحت مزيدا من المناضلين منهم خالي محمد السنداوي الذي اعتقل وأخذ حكما بخمسة عشر عاما، وابن خالتي جمال كحيل الذي حكم باثني عشر عاما، وقد تفاعلت هذه المعطيات وتجمعت وتأكسدت في مشاعري لتجعلني أربط حياتي كلها بقضية الأسرى، ليس بحكم عملي المهني ووظيفتي ولكن بحكم تكويني وبحكم نفسيتي وثقافتي.

وفي حي الدرج العتيد

أمضيت المرحلة الابتدائية في مدرسة صلاح الدين في حي الدرج، والإعدادية في مدرستي الفلاح شرق مدينة غزة والزيتون في غرب المدينة ، كما أمضيت المرحلة الثانوية في مدرسة يافا.

وكانت سنوات الدراسة في المرحلة الثانوية حافلة بالنضال، فالطلاب هم دائما وقود الحركة الوطنية وروادها، وكان إحساسي بان والدي سجين يغذي فيّ مشاعر الثورة ويشحنني بطاقات من النضال والأعمال الجريئة، وكنت لذلك أتعرض للاعتقال والاستدعاء من قبل سلطات الاحتلال، وكان صاحب السلطان يهددني ويتوعدني ويساومني ويقول لي :

-سأمنعك من الامتحانات، سأمنعك من السفر، لن تلتحق بالجامعة.

ولذلك تركت التعليم وانخرطت في العمل لأسحب منه هذه الأوراق التي يحاول أن يبتزني من خلالها.

كانت ظروفنا المعيشية بائسة، وكانت مستحقات والدي من الصندوق القومي في عمان لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تصلنا إلا عبر تكاليف وسفريات تمتص أكثر المخصصات ولا تبقي إلا النذر اليسير.

ورغم كل شيء استطعت أن احصل على الثانوية العامة عام 1985.

التعذيب بقرارات ومراسيم حكومية

ارتبط عبد الناصر فروانة بقضية الأسرى وأصبح مرجعا في كل ما يخص شؤون هذا القطاع الوطني الخطير، فمن حيث التعذيب الذي يتعرض له الأسرى يقول فروانة: لقد جاء قرار التعذيب عبر توصيات لجنة تسمى لجنة "لنداو" عام 1987 التي شكلت أساساً لإقرار وشرعنة تعذيب الأسرى وبذلك تكون إسرائيل الدولة الوحيدة في العالم التي توافق على التعذيب وتشرّع ممارسته وتجعله أمرا مشروعا، وجراء التعذيب استشهد عدد كبير من الأسرى لعل آخرهم الشهيد عرفات جرادات من الخليل.

ومن ذلك أيضا قانون حرمان الأسرى من الزيارات الذي صدر عام 1996 والذي لا يسمح بزيارة الأسرى إلا من الأقارب على أن يكونوا من الدرجة الأولى.

قانون قراقوش اولمرت

لقد شكل رئيس الوزراء الإسرائيلي (ايهود اولمرت) في شهر اذار مارس عام 2009 لجنة وزارية برئاسة وزير العدل آنذاك، وضمت بعضويتها المستشار القانوني للحكومة لاستحداث أساليب جديدة للتضييق على الأسرى، ومن ثم تمت المصادقة على توصيات اللجنة أواخر الشهر ذاته من قبل حكومة إسرائيل، بالإضافة إلى إقرار العديد من القوانين من أعلى المستويات ومن الكنيست منها ما يعرف بقانون "شاليط" الذي صادر حقوقا أساسية للأسرى، أي أن أكبر وأهم ثالوث قضائي وتنفيذي في إسرائيل أقر تلك التوصيات والقرارات وتم تطبيقها على أرض الواقع، ووضع في أيدي صغار الضباط القوة والصلاحية للبطش بالأسرى وللتنفيس عن الحقد العدواني وعن الكراهية وتفريغ شحنات الغضب في جنود الحق الأسرى المجردين من أي سلاح سوى سلاح الصبر والإرادة والتحدي.

اختراق الرواية الإسرائيلية

ويقول عبد الناصر فروانة بألم وحرقة وبلهجة صادقة: إننا جميعا مقصرون، في حق الأسرى لا أستثني أحدا، إن وزارة الخارجية لها أكثر من مئة سفارة في العالم، ولها مكاتبها واتصالاتها وميزانياتها ولغتها وقنواتها، ولكنها لا تفعل شيئا لهذه الشريحة الوطنية من صفوة المناضلين. إلا ما ندر.

وهناك وزارة الإعلام ووزارة الثقافة ولكل منهما رجالاتها ومفكروها وكُتّابها وفُرصها وهيلمانها، ولكن قضية الأسرى معزولة أغلب الأحيان في كواليس النسيان في هاتين الوزارتين.

أما وزارة الأسرى، وفعاليات نادي الأسير فهما يعملان جهد المقل في مواجهة إخطبوط الرواية الإسرائيلية التي تصور أسرانا على أنهم (إرهابيون) وليسوا جنود حق يطالبون بحرية بلادهم واستقلالها، ولكن ملفات الأسرى ثقيلة ومتعددة وبحاجة لمزيد من الجهد وليس بإمكان جهة لوحدها أن تحملها.

إنني أستطيع بصدق أن ألمس مواضع القصور والإهمال والسلبية في التعامل مع هذا الملف، ولا أستطيع أن أجد الفعاليات والحراك الشعبي والجماهيري والرسمي الذي يهز ضمير العالم لينال الأسير الفلسطيني حقه في الحرية والحياة الكريمة.

صرخة في وادي العدم

يقول عبد الناصر فروانة: في الشهر الماضي كنت في سويسرا وفرنسا، توجهنا نهاية شباط/ فبراير 2013 ضمن وفد المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان، ضم خمسة أفراد بينهم جبر وشاح وعبد الناصر فروانة وبعض أمهات الأسرى.. توجهنا وشاركنا في جلسات مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة في جنيف حول التعذيب والاعتقال التعسفي وأدلينا بشهاداتنا في إحدى قاعات قصر الأمم، وأجرينا العشرات من اللقاءات الرسمية، والتقينا بالجمهور عبر الندوات والمحاضرات في كل من سويسرا وفرنسا، ووجدنا أن الرواية الإسرائيلية هي الطاغية، وأدركنا أنهم في الدول الغربية والولايات المتحدة غير مطلعين على حقيقة الأوضاع عندنا.

وللأمانة فإنهم دائما على استعداد لإعارتنا أذنا صاغية، ومن واجبنا عبر الفيسبوك وعبر النشرات والدراسات والصحف والمطبوعات والسفارات ومؤسسات حقوق الإنسان من واجبنا أن نعبر عن قضيتنا باللغات الأجنبية، على الأقل بلغتين الفرنسية والانجليزية، وليس من الصعب تأسيس موقع الكتروني مجهز عصري يكرس للعالم كله وباللغات والمفاهيم والحقائق التي تجعل قضية أسرانا تكتسب الصفة الدولية خاصة وأن الحكمة العربية القديمة تقول: "إن الله لا يسمع من ساكت."

مؤسسة اسمها عبد الناصر فروانة

منذ أن أفرجت عنه إسرائيل أخذ المحرر عبد الناصر فروانة على عاتقه الدفاع عن قضية الأسرى لإبراز معاناة زملاء كانوا بالأمس رفاق زنزانة واحدة، واليوم وقد تحرر أضحى من الواجب عليه أن يُذكر العالم بهم .

لقد أمضى فترات طويلة من حياته متنقلا بين السجون الإسرائيلية، وقد جاوزت تلك الفترة ست سنوات اكتوى فيها بنيران الأسر، ومن ثم فقد رأى لزاما عليه أن يعبر بالكتابة اليومية عن الأسرى وعن معاناتهم وشرحها لوسائل الإعلام والإجابة عن استفسارات وسائل الإعلام بدقة وبرحابة صدر، وكرس جل وقته لأجل قضيتهم.

وهو يرى أن ما يفعله رغم أهميته لا يصل إلى مستوى التضحية التي يقدمها جنود الحرية.

ويجتهد لمتابعة كل ما يجري داخل السجون والمعتقلات عبر وسائل عدة ومن ثم ينقلها لوسائل الإعلام بقصد تشكيل رأي عام ضاغط للتحرك باتجاه إنهاء معاناة الأسرى .

وقد أنشأ فروانة موقع "فلسطين خلف القضبان" عام 2004 الذي يتابع باستمرار كل ما يتعلق بقضايا الأسرى ومعاناتهم، ويخرج بشكل شبه يومي إصدارا أو أكثر يخص الأسرى وتتناقله وسائل الإعلام .

يقول فروانة: إن موقعي ليس ملكا شخصيا، بل هو للأسرى وذويهم وقد رأيت أن أقدم لهم هذه الجهد في ظل نسيان كبير في العالم لقضيتهم، وحتى فلسطينيا على أني اعتز بما أقدمه وأرى فيه خندقا متقدما في الدفاع عن قضية فلسطين، وعن قضية الأسير الفلسطيني الذي هو الوقود المقدس لإشعال ثورة الحق في وطننا المغتصب .

وليس عيبا أن نستفيد من تجارب الآخرين، فان إسرائيل جعلت من قضية جندي واحد فرد قضية عالمية، وجندت لها كل المنابر والمؤسسات في إسرائيل والخارج لشرح قضية هذا الجندي وطوال خمس سنوات، لم تتوقف الحملات الصحافية من أجل أسير واحد فرد، فكيف نبيح لأنفسنا السكوت على اعتقال خمسة آلاف أسير أمضى كثيرون منهم سنوات عديدة تفوق العشرين في الأسر وسقط كثيرون فريسة لمرض السرطان المخيف .

إن المفارقة بيننا وبينهم تدين أجيالنا كلها، وتدين مؤسساتنا كلها، بل وتدين كل حكوماتنا ذلك أن الدم الفلسطيني مقدس وعزيز علينا كما الدم الإسرائيلي عزيز على كل يهودي .

صديق على درب الانتماء

ويقول المفكر والكاتب خالد بركات من كندا في معرض حديثه عن فروانة :

نتعرف من خلال كتابات المناضل عبد الناصر على أسماء وقصص وحكايات مناضلين ومناضلات كثر، ونقرأ عن أخلاق وقيم ثورية ووطنية، أرست مداميكها نضالات طويلة وصعبة لشهداء قضوا في السجون وفي أقبية التحقيق. ولأن الأسرى ظلوا بوصلة هذا المناضل، فإنه ظل بدوره "رهينة" مستمرة لهم، ولقضية وطنيه كبرى ونبيلة سوف تنتصر حتما .

و في مقام آخر يقول رئيس الجالية الفلسطينية بالنرويج الكاتب نضال حمد :

إن المتتبع لكتابات عبد الناصر فروانة يجد أنه يتجه "بالموقع" نحو الحرفية والمهنية ليجعله مركز أبحاث فعلي يختص بشؤون وقضايا الأسرى، والمعتقلين وبتاريخ الحركة الوطنية الأسيرة في فلسطين المحتلة، فموقعه تأسس لحمل راية الأسرى ومن أجل الدفاع عنهم وتقديم المعلومات الدقيقة عن أوضاعهم وقضاياهم.

أخي عبد الناصر فروانة..

لو أن كل فلسطيني أو عربي فكر بالأسرى كما تفكر أنت، ولو أن كل مؤسسة أو وزارة أو تجمع بشري، أخذ على نفسه زمام المبادرة كما فعلت أنت، لكانت قضية الأسرى موضع اهتمام العالم، ولاستطعنا أن نمد أيدي الحب والتواصل مع هؤلاء الأبطال الذين ضحوا بنفوسهم وأرواحهم من أجل وطنهم.

إن خمسة آلاف أسير فلسطيني ينظرون إلينا متطلعين إلى يوم الخلاص والحرية ومن واجبنا أن لا نخيب رجاءهم، وأن نساعدهم على أن يعودوا إلى أهلهم وذويهم.. تلك رسالة كل إنسان فلسطيني حقيقي مثقف ونبيل، بل تلك رسالة كل مواطن عربي مهما كان موقعه، ومهما كانت انتماءاته، ذلك أن التواطؤ بالصمت أسوأ كثيرا من التواطؤ بالعمل وان شجرة الحرية لا يمكن أن تزهر إلا إذا ارتوت بدماء الأبطال ودموع الأمهات واخترقت جذورها باطن الأرض وأطلت على الكون لتعانق الشمس ولتثبت أننا أمة نعرف للمناضلين حقهم مستذكرين ما يقوله أحمد شوقي :

"قف دون رأيك في الحياة مجاهدا
إن الحياة عقيدة وجهاد"
"وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرجة يدقُّ"
"وما نيل المطالب بالتمني
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا"

(2013/4/12)

خليل الوزير (أبو جهاد)

قائد تاريخي فذ جمع بين عبقرية النضال وعبقرية الاستشهاد

كان أول من أسس خلية مقاتلة بمبادرة ذاتية وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره.

مفتاح شخصيته الابتكار فهو أول الرصاص وأول الحجارة، وأول الانتفاضة وأول الشبيبة، وأول ممثل لفتح في الجزائر ،وأول من فكر في العمليات البطولية الجريئة.

كان له فعل السحر في الإقناع واستقطاب المناضلين، والدفاع عن الوحدة الوطنية والإيمان بان الإعلام جبهة على خط النار في معركة التحرير.

بعد 25 عاما تعترف إسرائيل أن جبهة كاملة مكونة من الطائرات والمروحيات والسفن والقوارب والمغاوير ونخبة مختارة من القيادات الإسرائيلية في كل موقع اشتركت في اغتياله بقيادة رابين وباراك وشامير.

عندما تتصفح حياة الرواد في منظمة فتح، تجد نفسك أمام ظاهرة نضالية فريدة، وتبدو هذه الظاهرة كأوضح ما تكون في حياة ثلاثة من القيادات التاريخية في الثورة الفلسطينية:

ياسر عرفات من القدس

وخليل الوزير من الرملة

وصلاح خلف من يافا

هؤلاء الشبان الثلاثة، تجمع بينهم صفة ثورية، وهي أن كل منهم على حده، بادر إلى اقتحام خط النار، وألقى بنفسه في أتون معركة النضال، بتدبير فردي، وبإمكانيات ضئيلة، وبروح جريئة مقاتلة، لا ترى معنى للحياة ولا أهمية لها، بدون قضية ونضال، وتحد شجاع لمن اغتصب أرضهم، واستولى على مدنهم وأسلم شعبهم للشتات والضياع.

اقرأ تاريخ كلّ منهم على رويه، تجد هذه الشعلة الوضاءة الرائدة، فياسر عرفات يترك دراسته في كلية الهندسة في جامعة الملك فؤاد "جامعة القاهرة حاليا"، لينظّم اتحاد الطلبة، ويقود الشباب المتعطش للثورة والنضال فإذا طلع فجر 23 يوليو في القاهرة يتقدم إلى أول رئيس لجمهورية مصر، ليقدم إليه وثيقة كتبها بدمه، "لا تنسوا فلسطين". وعندما تعرضت مصر للعدوان الثلاثي عام 1956 تقدم الملازم أول ياسر

عرفات ليتطوع، محاربا، مع شعب بور سعيد. إنها شعلة المبادرة، شعلة الثورة المقدسة التي تلتهب في وجدان وكيان محمد عبد الرؤوف القدوة، الشهير بياسر عرفات.

أما صلاح خلف، فما أن أنهى دراسته الجامعية في كلية دار العلوم التابعة لجامعة القاهرة، حتى تم تعيينه في مدرسة خالد بن الوليد مدرسا للغة العربية في المنطقة الوسطى بقطاع غزة ومن ثم ينتقل إلى مدرسة الزهراء أعرق مدرسة ثانوية للبنات في فلسطين، وكان، طوال دراسته الجامعية رفيقا لعرفات، في اتحاد طلبة فلسطين فلما عاد، وانتظم في التدريس، أيقظ شعلة الثورة والنضال في نفوس طلبته، وكان من بينهم القائد المحارب ممدوح صبري صيدم.

إنها شعلة الثورة، التي تسكن قلب ووجدان ذلك الجيل الرائد، الذي نضج وعيه وفكره على مبدأ المقاومة، وطوال حياته وعلى امتداد تاريخه، كان صلاح خلف مبادرا، قائدا تسكنه الثورة ويشغل باله تحرير فلسطين في كل ثانية من عمره.

وتبدو هذه الحقيقة واضحة جليّة في خليل الوزير، فأبو جهاد منذ ريعان صباه، ومطلع شبابه، شاب جريء قوي مبادر، صلب العود، صادق الانتماء، لا يبالي بحسابات الأمان، ولا يفكر إلا بعقلية الفدائي الثائر ومن هنا، فقد نظم بنفسه فصيلا ثوريا مقاتلا وتقدم بجرأة، وثبات ليعبر خطوط وقف إطلاق النار في قطاع غزة ويقاتل ببسالة في سبيل المبدأ والهوية ومحاربة الباغي الظالم الذي طرده وأهله من مدينة الرملة.

هذه الشخصية الثورية الفذة المبادرة، القادرة على عبقرية الابتكار النضالي سنجدها بصورة واضحة في فصول حياة خليل الوزير، وخاصة لقائه مع أبو عمار، وإنشاء منظمة فتح والاقتران بانتصار الوزير، وافتتاح مكاتب فتح في الجزائر، وقيادة القطاع الغربي، وانطلاق الانتفاضة الأولى، ووضع خطة عملية الشاطئ لدلال المغربي، والتخطيط المحكم الجريء لعشرات العمليات الفدائية. ولكن أهم من كل ذلك في نظري، قدرته على تنظيم الكوادر واستقطاب المناضلين للانخراط في حركة فتح.

بانوراما قائد رائد

ولد خليل إبراهيم محمود الوزير في اليوم العاشر من شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 1935 في مدينة الرملة بفلسطين، وعندما تفجرت حرب عام 1948 هاجر مع عائلته إلى غزة، واستقر في حي الدرج وكان يومها في الثالثة عشرة من عمره، وما كاد يشب عن الطوق وتكتمل رجولته حتى كرس نفسه للعمل الفلسطيني المسلح ضد الاحتلال الإسرائيلي، وفي غزة تم انتخابه أمينا عاما لاتحاد الطلبة وعلى الفور شكل منظمة سرية للعمل العسكري كانت مسئولة في عام 1955 عن كثير من العمليات العسكرية الجريئة حيث كان الفدائيون الفلسطينيون يعبرون الخطوط ويقومون بمهاجمة الأهداف الإسرائيلية، ومن أهم أعماله في تلك الفترة تفجير خزان كبير للمياه قرب قرية بيت حانون وكان ذلك في نهاية عام 1955.

وفي عام 1956 التحق الشاب خليل الوزير بجامعة الإسكندرية، ولم يلبث أن غادر مصر إلى السعودية للتدريس، حيث أقام فيها اقل من عام ثم توجه بعد ذلك إلى الكويت التي ظل فيها حتى عام 1963.

لقاء مع أبو عمار

وخلال إقامته في الكويت تعرف إلى صديق عمره أبو عمار، وشارك معه في تأسيس حركة فتح بالاشتراك مع زميلهم الثائر صلاح خلف، وقد تولى خليل الوزير مسؤولية مجلة "فلسطيننا" التي تحولت فيما بعد إلى منبر لاستقطاب المنظمات الفلسطينية التي كانت متناثرة في العالم العربي.

وفي تشرين الثاني عام 1963 غادر الكويت إلى الجزائر حيث تولى مسؤولية أول مكتب لحركة فتح، وحصل من السلطات الجزائرية على إذن بالسماح لكوادر حركة فتح بالاشتراك في دورات عسكرية في الكلية الحربية في الجزائر، كما وافقوا له على إقامة معسكر تدريب للفلسطينيين المقيمين في الجزائر.

والواقع أن ثورة الجزائر ثورة المليون شهيد قد أثرت على أفكار وثقافة ومبادئ خليل الوزير، فقد تعمق في ملفات الحرب الشعبية الجزائرية واكتسب منها الخبرات والثقافة كما كان دائما متفائلا مبتسما مشرقا حنونا معطاءً ويقول باستمرار عبر ابتسامته المشرقة غدا سترون ستتحرر فلسطين كما تحررت الجزائر.

ويذكر في تاريخ هذا القائد أنه أقام أول اتصالات مع البلدان الاشتراكية خلال وجوده في الجزائر، وفي عام 1964 توجه برفقة أبو عمار إلى الصين حيث تعهد قادتها بدعم الثورة فور انطلاق شرارتها، ثم توجه إلى فيتنام الشمالية وكوريا الشمالية وكان ذلك عام 1965، وبعدها غادر الجزائر إلى دمشق حيث أقام مقر القيادة العسكرية، وكلف بالعلاقات مع الخلايا الفدائية داخل فلسطين، وقد شارك في حرب 1967 بتوجيه عمليات عسكرية ضد الجيش الاحتلالي في الجليل الأعلى.

أبو جهاد وملفات ثورية أخرى

وكان خليل الوزير أحد قادة الدفاع عن الثورة ضد المؤامرات التي تعرضت لها في الأردن، كما كان له دور بارز خلال حرب لبنان، وساهم في تثبيت قواعد الثورة هناك بين عامي 1976 - 1982 حيث تولى المسؤولية عن القطاع الغربي في حركة فتح، وكان هذا القطاع مسؤولا عن العمليات العسكرية في الأراضي المحتلة، وقد عكف الشهيد على تطوير القدرات القتالية لقوات الثورة وأدار العمليات العسكرية ضد الاحتلال الإسرائيلي، انطلاقا من الأراضي اللبنانية، وكذلك المواجهات مع قوات العدو التي ساهمت في تعزيز موقع منظمة التحرير الفلسطينية العسكري والسياسي والدبلوماسي.

حرب بيروت بقيادة أبو عمار

وكان لخليل الوزير دورا قياديا فاعلا خلال الغزو الصهيوني للبنان، حيث شهدت الجبهة اللبنانية أروع حرب خاضتها الأمة العربية ضد الآلة العسكرية الصهيونية، فقد استمرت هذه المعركة ثمانية وثمانين يوما عام 1982 وتجلت فيها عبقرية وقيادة الأخ أبو عمار كما تجلت فيها قيادة وخبرة وعقلية خليل الوزير، حيث اعتبرت هذه المعركة شاهدا حيّا على قدرة المقاتل العربي في التصدي للجيش المزعوم الذي قيل عنه أنه لا يقهر.

إن التاريخ يسجل بحروف من ذهب أن خليل الوزير وياسر عرفات قائدان مقاتلان استطاعا كسر كل الأوهام التي كانت الدعاية الصهيونية ترسمها للجيش الإسرائيلي.

وفي عام 1982 غادر أبو جهاد مع الأخ أبو عمار إلى تونس، ومن هناك توجه إلى عمان وترأس الجانب الفلسطيني في اللجنة المشتركة الأردنية الفلسطينية لدعم صمود الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة، وهناك برز اسمه مجددا إثر اندلاع الانتفاضة الجماهيرية الأولى المتجددة في الوطن المحتل، حيث اعتبرت الانتفاضة انجازا نضاليا عالميا كانت أفكار ورؤى خليل الوزير تخطط له، وترسم له سبل النضال والاستمرار.

اغتياله في تونس

وعندما نستعرض حياة أبو جهاد نصل إلى حقيقة تاريخية رائعة، وهي أن مفتاح شخصية هذا الإنسان عبقرية النضال وأنه كان دائما في مركز التخطيط والتفكير، ومحاولة التغلب على كل الأساليب التقليدية بحيث يفاجئ العدو بخطط وقدرات وطاقات لم يكن يعمل لها حسابا. وأذكر أن الكاتب الإسرائيلي النائب في الكنيست الإسرائيلي كتب ذات يوم مقالة قال فيها أنه يجب تدريس الخطط العسكرية التي كان يخططها أبو جهاد إبان حرب بيروت عام 1982، وخاصة معركة قلعة شقيف التي احتلتها القوات الإسرائيلية عام 1978 واستعادتها القوات الفلسطينية وحررتها ولكن الجيش الإسرائيلي عاد إلى احتلالها فعاد الفلسطينيون لتحريرها مرة أخرى ثم انسحبوا منها بملء إرادتهم، كما أن معارك الليطاني تشهد بكفاءة وقدرات القائد العسكري الفذ خليل الوزير.

لم يكن أبو جهاد قد درس في معاهد أو كليات عسكرية عالمية، قد يكون اشترك في بعض الدورات في هذه العاصمة أو تلك، ولكن عقليته العسكرية الفذة تتجلى في قدرته على الابتكار، ومنازلته للخصم بكفاءة وقوة، ولا عجب بعد ذلك أن يكون مستهدفا، بل أن يكون على رأس قائمة القادة المطلوب تصفيتهم.

كان ذلك في تونس عندما وصلت كتيبة الموت التي اغتالت أبو جهاد عام 1988 وهو في الثالثة والخمسين من عمره مرحلة النضوج والإبداع والقدرة على العطاء، مرحلة الخبرة والتجارب العسكرية والثقافة الحربية التي خلقت منه ذلك البطل الذي يسعدني أن أقدم له هذه الباقة من الورد في ذكراه. ورغم أن الجميع كانوا على يقين بمن قتل أبو جهاد إلا أنهم لم يعلنوا عن ذلك.

دموع وذكريات أم جهاد

أما تفاصيل العملية كما ترويها انتصار الوزير (أم جهاد) أرملة الشهيد وابنته حنان فهي معروفة على نطاق واسع، وتتلخص بتمكن فرقة من الموساد من الوصول إلى ذلك الحي المهم في العاصمة التونسية الذي يوجد به المنزل الذي يقيم به أبو جهاد، وتمكنهم من دخول المنزل حيث قتل أبو جهاد أمام ناظري عائلته، وعلى أثر سماعي باستشهاد القائد أبو جهاد وكنت يومها في فرنسا فأخذت الطائرة أنا وبناتي سهى وهالة واتجهنا فورا إلى مدينة تونس وكان ذلك في ساعات الفجر الأولى. وعندما وصلت إلى الفيلا شاهدت منظرا لا أستطيع أن أنساه مدى عمري، فقد كانت آثار الدماء لا تزال على الجدران وعلى الأرضية ولا تزال آثار الرصاص في كل مكان، كما كانت مغلفات الرصاص الفارغ محفورة على الحائط فوق سرير الوليد نضال الذي لم يكن قد تجاوز سنتين ونصف من عمره، وكانت حنان ابنة الفقيد في الخامسة عشرة من عمرها وقد أصيبت بصدمة نفسية وعصبية شديدة، كما كانت والدتها أم جهاد في حالة من الحزن والأسى والكآبة يتعذر وصفها. وأذكر أن المناطق المجاورة والبيوت والعمارات كانت تزدحم بأبناء الشعب التونسي

المتعاطف مع عائلة أبو جهاد والذي هب من كل مكان ليعبر عن استنكاره وشجبه لهذه الجريمة، وتقديم مشاعر الود والتعاطف والمشاركة الوجدانية مع أسرة الشهيد.

وانتظر العالم تسع سنوات حتى نطقت إسرائيل. ففي عام 1997 كشفت الصحف الإسرائيلية عن تفاصيل العملية الدقيقة والتي استخدمت فيها الطائرات والزوارق كما استعانت إسرائيل كعادتها بعدد من العملاء.

وكانت صحيفة "معاريف" العبرية الصادرة بتاريخ 4 تموز هي أول جهة إسرائيلية تشير صراحة وبالتفصيل لتورط إسرائيل في العملية التي أودت بحياة نائب القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية.

وقالت "معاريف" دون أن يكذبها أحد في تل أبيب: إن من نفذ العملية هم وحدات كوماندوز خاصة تابعة لهيئة الأركان الإسرائيلية، وهي الأقوى في الجيش الإسرائيلي حيث اقتحمت منزل أبو جهاد ليلة 15-16 نيسان عام 1988 وتم تنظيم العملية كعملية عسكرية واسعة النطاق.

وتم نقل المشاركين في الاغتيال على متن أربع سفن، من بينها اثنتان نقلت عليهما مروحيتان لاستخدامهما في حالة الاضطرار لعملية إخلاء طارئة إذا حدث أي خلل أو طارئ غير متوقع.

وكشفت الصحيفة أنه تم إعادة بناء فيلا أبو جهاد التي كان يقطن بها في تونس العاصمة بتفاصيلها الدقيقة في إسرائيل اعتمادا على عملاء لجهاز الموساد الذي درب رجاله ووحداته العسكرية على العملية داخل الفيلا الشبيهة في إسرائيل.

وقالت الصحيفة إن ايهود باراك مساعد رئيس الأركان في تلك الفترة وقت تنفيذ العملية وزعيم حزب العمل عند نشر هذا التقرير في "معاريف" هو الذي أعد للعملية وأشرف على تفاصيل الاغتيال من البحر قبالة شواطئ تونس. وهو صاحب سجل حافل في عمليات الاغتيال.

ومزيد من تفاصيل عملية الاغتيال

ولم يكن ايهود باراك وحده، فقد نشرت "معاريف" صور وأسماء القيادات التي خططت ونفذت تلك العملية وأبرزهم: اسحق شمير رئيس حكومة الاحتلال وقتذاك الذي صادق على عملية الاغتيال، وبعد تنفيذ العملية بنجاح أرسل برقية تهنئة لمنفذيها، وكذلك اسحق رابين وزير الدفاع في حكومة الوحدة الوطنية الإسرائيلي الذي أيد تنفيذ العملية في جلسة المجلس الوزاري المصغر، بالإضافة إلى أمنون ليبكن شاحك رئيس الاستخبارات العسكرية الذي وفر معلومات لازمة لتنفيذ العملية بنجاح، وناحوم ادموني رئيس جهاز الموساد الذي قدم أيضا معلومات دقيقة لإنجاح العملية، وايل ريجونيس ضابط الاستخبارات في دورية هيئة الأركان والذي بدأ كما تقول الصحيفة بجمع معلومات في نهاية عام 1987 بعد تسريحه من الجيش، ودان شومرون رئيس الأركان الإسرائيلي الحالي الذي صادق على عملية الاغتيال.

عناصر الخطة الجهنمية .. قيادات وآلات

وتكشف الصحيفة أن إسرائيل استعانت بطائرة بوينغ 707 كانت تحلق قرب الشواطئ التونسية لجمع معلومات وبثها، والتنصت على الهواتف التي يستخدمها القادة الفلسطينيون. وأشارت الصحيفة إلى أنه أثناء الاستعداد لتنفيذ عملية الاغتيال تمكنت دوريات بحرية إسرائيلية بمساعدة شبكة الموساد في تونس

من التسلل إلى الشواطئ التونسية لتحديد المكان الأكثر أمنا لانطلاق وحدة الكوماندوز التي أوكل إليها مهمة تنفيذ الاغتيال.

ومن أهم ما نشرته الصحيفة تفاصيل اتخاذ القرار باغتيال أبو جهاد وربما يساعد ذلك في فهم عقلية وتفكير القيادة الإسرائيلية في مثل هذا النوع من الاغتيالات والذي طال هذه المرة أعلى رتبة عسكرية وسياسية فلسطينية ضمن سلسلة الاغتيالات التي نفذتها إسرائيل.

وقالت "معاريف" إنه في يوم 1988/3/8 بعد انتهاء عملية اختطاف الباص الذي كان يقل موظفي مركز الأبحاث النووية في ديمونا عقد مجلس الوزراء الصهيوني المصغر وعلى رأس جدول الأعمال اقتراح قدمه جهاز الموساد باغتيال أحد أفراد منظمة التحرير الفلسطينية ولكنه هذه المرة كان أبو جهاد.

ولماذا اغتالوا أبو جهاد؟

وتقر "معاريف" العبرية بأن هناك أسبابا عديدة كانت وراء اغتيال أبو جهاد، وفي مقدمة هذه الأسباب الدور الرئيس لخليل الوزير في الانتفاضة الفلسطينية الكبرى، كما أنه كان على قائمة الاغتيالات بسبب الدور الذي لعبه في العمل المسلح ضد إسرائيل خلال سنوات طويلة ماضية.

ويسرد الصحافي الايرلندي غوردون توماس في كتابه "انحطاط الموساد" ما جرى في تلك اللحظات الحرجة في 16 نيسان عام 1988 صدر الأمر بالتنفيذ في تلك الساعة حيث أقلعت مجموعة من طائرات بوينغ التابعة لقوة الجو الإسرائيلية من قاعدة عسكرية تقع جنوب تل أبيب وكانت واحدة منها تقل اسحق رابين وعددا من كبار الضباط الإسرائيليين وكانت على اتصال دائم عبر لاسلكي سري بفريق الاغتيال الذي اتخذ أفراده مواقعهم بقيادة عميل اسمه الرمزي "سورد"، وكانت الطائرة الأخرى مكدسة بأدوات المراقبة والتشويش، وكانت طائرتان أخريان تنقلان خزانات الوقود، وعلى ارتفاع شاهق فوق الفيلا حام أسطول الطائرات في الفضاء وهو يتابع كل حركة على الأرض عبر تردد لاسلكي، وبعيد منتصف الليل في 16 نيسان سمع الضباط المحمولون جوا أن أبا جهاد قد عاد إلى منزله بسيارة المرسيدس التي كان ياسر عرفات قد قدمها له كهدية عرسه.

ويكمل توماس: "من موقع قرب الفيلا، أعلن سورد عبر ميكروفون يعمل بحركة الشفاه أنه يسمع أبا جهاد و هو يصعد السلالم و يذهب إلى غرفة نومه و يهمس شيئاً لزوجته و يمشي على أطراف أصابعه إلى الغرفة المجاورة لتقبيل ابنه النائم قبل أن يمضي إلى مكتبه في الطبقة الأرضية، كانت طائرة الحرب الإلكترونية، و هي (النسخة الإسرائيلية) لطائرة الرادار الأميركية إيواكس، تلتقط هذه التفاصيل و تحوّلها إلى رابين في طائرة القيادة، و عند الساعة 12:17 صباحاً صدر أمره بالتنفيذ."

و بعد قرار التنفيذ هذا كان على (سورد)، أن يأمر رجاله بالتنفيذ، فأجهز أحد رجاله على سائق أبو جهاد الذي كان نائماً في سيارة المرسيدس.

ثم تحرّك (سورد) نفسه مع أحد رجاله و فجّرا بوابة الفيلا بمتفجرات بلاستيكية لا تحدث صوتاً، ثم قتلا حارسين فوجئا بالموقف على ما يبدو، و من هناك اندفع (سورد) إلى مكتب أبي جهاد فوجده يشاهد شريط فيديو، و قبل أن ينهض أطلق النار عليه مرتين في صدره، و لم يكتف (سورد) بذلك، فأطلق رصاصتين إضافيتين على جبهته.

وبعد كل تلك السنوات من تنفيذ العملية ها هي الأوساط الإسرائيلية تعترف أن العملية فشلت في هدفها الأساسي وهو إخماد الانتفاضة، بل إن الانتفاضة تصاعدت أكثر فأكثر. فالرصاصات التي أطلقها رجال الكوماندوز الإسرائيلي، صحيح أنها أنهت حياة أبو جهاد على الأرض ولكنها أحيته في قلوب ملايين الفلسطينيين ليظل رمزا للمقاومة والثبات على المبدأ والدفاع عن أرض فلسطين مهما كانت المعطيات، ومهما كانت قوى البطش والغدر والعدوان.

الرواد لا يرحلون ولا تغرب شمسهم

ما أحوجنا في هذا الظرف العصيب إلى أن نقف طويلا أمام مسيرة هذا القائد العظيم، بل ما أحوجنا إلى الوقوف أمام تاريخ كل مناضل فذ جاد بروحه في سبيل حرية بلاده.

إن استنطاق مواقف هؤلاء القادة ضرورة حضارية وإنسانية وأخلاقية، لأنها بمثابة أضواء كاشفة تنير السبل أمام الأجيال، وترسم علامات مضيئة لمسيرة تاريخية باتت تتعثر في دروب الذاتية والأنانية والعناد والفردية. لقد كان خليل الوزير نموذجا رائعا للقائد المتواضع، فهو بحق من القادة الرواد الذين لم ننصفهم على مستوى الدراسة، فلم ينل ما يستحقه من الاهتمام حيث عصفت المتغيرات بكثير من القيم والحقائق، وخلقت حالة من البلبلة اختلط فيها الحابل بالنابل.

وتداخلت الأوراق والتوجهات ودخل كثيرون في سباق محموم على الكرسي والرصيد والسلطة والنفوذ، وركب كثيرون الموجة ليلعبوا أدوارا ليست لهم. وليحتلوا أماكن ما خلقت لهم وما خلقوا لها، وفي خضم هذه الأجواء ابتعدت عنا النماذج القدوة، كما ابتعدنا نحن عنها في غفلة من حركات المد والجزر الوطني المحكومة بحركة التاريخ.

بين عرفات وخليل الوزير

يعتبر خليل الوزير واحد من الكوكبة المقاتلة التي وهبت روحها وعقلها من أجل فلسطين، وإذا كان ياسر عرفات هو الزعيم السياسي المقاتل، والبطل المنظِّر الذي يتقدم الصفوف ورشاشه على كتفه يتحدى الموت ويعرف كيف يجند الشيطان نفسه لخدمة أهدافه على نحو ما يقول محمود درويش، فان خليل الوزير قائد حمل بدوره الرشاش على كتفه وقاد آلاف الكوادر ونظمهم ودربهم وخطط لهم ليجمع بذلك بين شجاعة المقاتل وإستراتيجية المنظم، وبلغت به الجرأة والطموح إلى تجنيد خلية مقاتلة كان مخططا لها أن تهاجم المفاعل الذري بديمونا، ولعل هذه الحادثة هي التي ألبت العناصر الإسرائيلية القيادية ضده وصممت على تصفيته.

جذور الثورة والإيمان بالبندقية

منذ أن كان خليل الوزير صبيّا في الثالثة عشرة من عمله وهو يتطلع إلى محاربة أولئك الذين أخرجوه مع أهله من مدينة الرملة البيضاء، فقد صمم وهو في تلك المرحلة العمرية المبكرة على أن يقاتل من أجل شعبه وأهله وكانت بداية الانطلاق عندما قام بنفسه بتنظيم فصيل مقاتل أخذ يخطط له ويقوده في عبور خطوط وقف النار ومحاولة إلحاق الخسائر بالعدو المحتل، واستمر يجمع بين الدراسة والمقاومة فيحمل الكتاب في يمينه، والسلاح في شماله وعاش وملء نفسه وجوارحه البحث عن الطريق إلى النصر والعودة والخلاص لشعبه.

وكان خليل الوزير دائما يستعيد في ذاكرته مدينة الرملة البيضاء التي هاجر منها، وتبدد شمل أسرته منها واستقر في قطاع غزة وما كادت تمر سنوات قليلة حتى كانت العمليات الفدائية التي يقودها موضع احترام وتقدير المناضلين ومنهم رفيق دربه ياسر عرفات الذي سعى لمقابلته وكان خليل الوزير يومها معلما للجغرافيا وفي نفس الوقت قائدا لفصيل مقاتل، وعندما التقى الثائران تعاهدا على المضي قدما من أجل تحرير القدس.

هذه الانطلاقة الأولى تمثل الشعلة المقدسة التي التقى عندها أكثر قادتنا البواسل ومنهم ياسر عرفات والشيخ احمد ياسين وصلاح خلف وخليل الوزير وغيرهم من شباب فلسطين الذين نضج وعيهم وتفتحت قلوبهم وعزائمهم على النضال.

الأصابع الإسرائيلية والقيادات الفلسطينية

ترصد إسرائيل دائما كل تحركات القيادات الفلسطينية، وتخصص لها حلقات دراسية على المستوى العسكري والنفسي، بل إنها تحاول أن تعرف طريقة تفكير كل قائد وأسلوبه وتحاول أن تستنتج أساليب تحركاته، ومن هنا تضع الخطط الملائمة للتعامل مع هذه القيادات وتصفيتها عن طريق (القتل المتعمد) وبالنسبة لخليل الوزير فقد كان على رأس قائمة الشخصيات الفلسطينية المطلوب رأسها، وذلك لخطورته الشديدة ولأنه أثبت انه قادر دائما على تنظيم المقاتلين ورسم الخطط الجريئة وتنفيذها بعقلية عسكرية فذة، ولا عجب أن تجند إسرائيل أكثر من عشرين عنصرا وأكثر من أربع طائرات وأكثر من سفينة ومروحيتين لمهاجمة بيت خليل الوزير واغتياله بطريقة لا إنسانية وهو بين أهله وزوجته وأطفاله.

ونحن الشعب الفلسطيني لا يمكن أن ننسى، ولا يمكن أن نغفر. قد نسكت حيناً، وقد يشل العجز والقهر والفاقة قوانا لحين.. ولكن من المؤكد أننا لن ننسى ولن نتسامح، وما قصة ذلك البدوي الذي أدرك ثأره بعد ثلاثة وثلاثين سنة.. بعيدة عن وجدان كل منا.. ومن المؤكد أننا سنثأر في مكان ما.. وزمان ما.. {وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون}.

ومن المفيد أن نتوقف هنا قليلا أمام ما كتبه المفكر الإسرائيلي أ.ب. يهوشع في صحيفة "ربوبليكا" الايطالية اليومية واسعة الانتشار حيث يقول:

إن كثيرين في الجيش الإسرائيلي يشعرون بالخزي والعار بسبب قتل الأبرياء الفلسطينيين، ومن المؤكد أن إسرائيل لن تستطيع أن تحقق انتصارا على الفلسطينيين مهما ألحقت بهم من خسائر بشرية.. تماما كما حدث في الجزائر وأفغانستان وفيتنام إذ عجزت الجيوش الفرنسية والروسية والأمريكية على إلحاق الهزيمة بهذه الشعوب، وكان النصر حليف حركات التحرر الوطني.

ويواصل الكاتب الإسرائيلي الكبير أقواله.. وهو بالمناسبة يعد صوت الشعب اليهودي.. فيقول:

هل ينبغي أن نقتل الأبرياء بالعشرات لأجل إيقاف العمليات التفجيرية أو الانتحارية.. إن قتل الأبرياء جريمة، ولكن الاستمرار في عمليات القتل يُعد عملا شيطانيا جهنميا.. ومن العبث أن نقتل المئات أو الآلاف ونحن بصدد البحث عن هذا القائد أو ذاك. لقد آن للجيش أن يرفع يده عن الزناد.. لأنه في هذه الحالة سيرتكب العديد من الجرائم.. وليس العديد من الأخطاء.

صرخة في واد العدم

ورغم هذه الأفكار التي ينادي بها بعض الإعلاميين وبعض المفكرين الإسرائيليين الليبراليين، إلا أن كل ذلك ذهب صرخة في وادي العدم، فلا يزال مبدأ "القتل العمد" أو التصفية الجسدية إستراتيجية تؤمن بها العقلية العسكرية الإسرائيلية ولا أدل على ذلك من استشهاد عرفات جرادات وميسرة أبو حمدية والشابين اللذين قتلا بدم بارد على حاجز عسكري قرب عنبتا في محافظة طولكرم منذ أيام قليلة وهما "فضل شاهين" و "ماهر دندن".

وأستذكر هنا بعض المآسي التي كان خليل الوزير طرفا فيها، فقد شهد في صباه المجزرة التي راح ضحيتها العديد من الفلسطينيين في مسجد المدينة بالرملة، كما أستذكر الأحداث الدموية التي أدت إلى مقتل العشرات من الفلسطينيين عبر أحداث مدينة اللد في عام 1948، واستذكر أيضا مذبحة دير ياسين بل إنني استذكر مأساة قانا ومأساة السموع وغيرها من المذابح التي رافقت النزاع العربي- الإسرائيلي على امتداد ثلاث وستين سنة.

ولعل ما تقوله الصحف العبرية الصادرة هذا الأسبوع يعبر عن الندم واللوم الذي يوجه إلى هذه المخططات العسكرية العدوانية، خاصة التي تقوم على التصفيات الجسدية، فقد كتبت صحيفة "معاريف" مقالا بقلم عميرربابورت وموريا بن يوسيف نشر يوم 2013/4/5 وذكرت فيه أن تصفية أبو جهاد منذ 25 عاما مشكوك في نتائجها فلم تحقق أي منفعة لإسرائيل، ولا يمكن إدخالها في إطار العمليات البطولية، إذ إن مصرع أبو جهاد لم يحقق أي نتائج ايجابية فلم تنتهِ الانتفاضة ولم يتحسن موقف إسرائيل العسكري بل ساءت العلاقة مع الفلسطينيين وتسبب مقتل أبو جهاد بتأثير امني سلبي وألحق بسمعة إسرائيل على المستوى الدولي الكثير من الضرر.

رؤى وأفكار القيادات الفلسطينية في ذكراه

ولا أدل على روعة وقيمة تراث أبو جهاد من أن الذكرى الخامسة والعشرين لاستشهاده تصادف إطلاق مؤسسة خليل الوزير في مدينة البيرة، هذه المؤسسة التي تتلخص في استلهام وإحياء تراث أبو جهاد في دعم صمود الشعب الفلسطيني من خلال دعم وتنمية الأفراد والمؤسسات لتوفير قاعدة صلبة لدولة فلسطينية حرة وديمقراطية ولمجتمع متقدم قادر على العطاء والبناء.

ولا شك أن رؤية هذه المؤسسة تقوم على تطوير الواقع الفلسطيني للانفتاح على العالم والاتصال به في كافة أماكن تواجده والاستفادة من الموروث النضالي المتعدد الجوانب الذي خلفه خليل الوزير للمساهمة في مسيرة التحرير وبناء مجتمع فلسطيني متقدم وعصري وحر.

يقول محمود العالول الصديق الذي رافق أبو جهاد أكثر من عشرين سنة: إن أبو جهاد كان يمتاز بصفات الرجل القائد الفذ الذي تميز بمبادراته ومثابرته وقدراته القيادية وصفاته الإنسانية ومن أبرزها التواضع بالإضافة إلى ما عرف عنه من قدرة على التخطيط والعمل العسكري.

ويقول الأسير مروان البرغوثي: إن أبو جهاد كان له دور بارز في دعم الصمود الوطني وبناء المؤسسات الوطنية، وبناء التنظيمات والمنظمات والخلايا العسكرية، وكان مساندا فاعلا لحركة الشبيبة وأطرها المختلفة، وكان مهندس الانتفاضة الأولى وبذل كل جهد ممكن لدعمها.

وتقول الأخت انتصار الوزير: "إن أبو جهاد الإنسان ورفيق الدرب كرس حياته لمسيرة النضال والكفاح المسلح حيث كان مرتبطا مع الحرية والكرامة الوطنية في الجانب الإنساني وكان حريصا دائما على التواصل مع الجميع ومساعدة أبناء الشعب الفلسطيني وخاصة اللاجئين وملتزما التزاما مطلقا بفلسطين.

ويقول عبدالرحيم ملوح: إن خليل الوزير كان مسكونا بقضية الوحدة الوطنية ومواجهة الاحتلال الإسرائيلي وإنه كان دائما يعمل على توحيد الجميع ضد الاحتلال معتبرا أن كل الاتجاهات والتناقضات يجب أن تتراجع أمام التناقض الأساسي الذي يواجهه الشعب الفلسطيني وهو الاحتلال الإسرائيلي.

أخي الشهيد البطل أبو جهاد..

كان قدرنا أن نلتقي في رسالة واحدة، وعلى مبدأ واحد وهو النضال من أجل الحق الفلسطيني، وتحت هذا العنوان سرنا طويلا على الجانب الإعلامي من طرفي، وعلى الجانب النضالي والعسكري من طرفكم، واذكر أنك كنت من المؤيدين والمناصرين لمسيرتي الإعلامية وقد وقفت بحزم دائما إلى جانبنا وحاولت دائما أن تدعمنا وأن تصوب مسيرتنا وأن تمدنا بالنصح والإرشاد طوال سنوات المد النضالي التي شهدتها الساحة الفلسطينية منذ السبعينيات حتى نهاية مرحلة التسعينيات.

وقد كنا بكل إخلاص موضع ثقتكم حيث كنا نرصد كل حرف يصدر في إسرائيل ويصل إلى أيدينا، ومن ثم يقوم الزملاء بترجمته، ونعمل بكل الطرق على إيصاله إلى قبرص أو روما أو إلى أي مصدر يتعاون معنا ليتم تحويل هذا المد الإعلامي اليومي إلى مكتبكم ومن ثم إلى جميع مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية.

إن هذه المرحلة الخصبة الرائعة من تاريخ الإعلام الفلسطيني تشهد بكفاءتكم وحسن تقديركم للأمور وفهمكم الحكيم لرسالة الصحافة والإعلام التي كانت تنير لكم الدرب وتطلعكم بكل شفافية وإخلاص على توجهات الشارع الإسرائيلي والقيادات الإسرائيلية.

لقد ربطت بيننا زمالة وصداقة درب لا زلت أعتبرها أهم انجاز في حياتي الإعلامية، ولا زلت أذكر أن وراء ذلك قيادة رجل حكيم محارب بطبعه مثقف يعرف للرجال أقدارهم ويعرف للعمل الإعلامي وزنه وأهميته.

وإني لا أزال أذكر أن خليل الوزير هو أول الرصاص وأول الحجارة وأهم من ذلك أنه الباني والمؤسس لعشرات المؤسسات الفلسطينية في كل المجالات وأنه الداعم الحقيقي للنقابات الوطنية والمهنية والإعلامية والصحفية، لقد حولت أيها الشهيد العظيم فلسطين كلها إلى مؤسسة وطنية تتنفس برئة منظمة التحرير الفلسطينية وتنبض بإحساس قوي بالانتماء لفلسطين وللبطل المؤسس خليل الوزير "أبو جهاد" أمير الشهداء.

(2013/4/19)

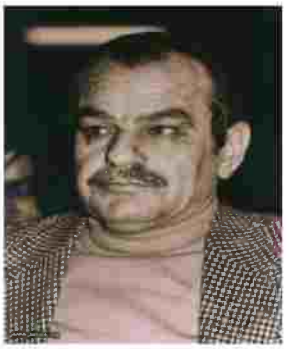

سعد صايل (أبو الوليد)

جلالة الملك حسين مخاطباً الرئيس عرفات في قمة فاس: إن صمودكم وأداءكم الرائع في بيروت ارتبط بجنرال يفخر الجيش الأردني إنه كان من بين قادته إنه الجنرال الكفء سعد صايل.

في صباه الباكر كان يخترق مخيم بلاطة في طريقه إلى المدرسة الصلاحية بنابلس فشب وفي قلبه لظىً، وفي وجدانه نار، وفي أعماقه رؤية نضالية وثورة.

إدارة المعارك علم ودراسة وتخطيط ولذلك درس في أعرق أكاديميات العالم العسكرية ومنها سانت هيرتز البريطانية وويست بوينت الأمريكية.

قال لضابط الأمم المتحدة: لقد خنت شرفك العسكري لماذا لم تطلق ولو رصاصة واحدة من مسدسك لتوقفهم؟

كان أكاديمية عسكرية قائمة بذاتها، قاد أعظم المعارك.. "معركة المدفعية" ومعركة الكرامة ومعركة بيروت. هناك لحظات اختيار حاسمة في حياة كل منا، لحظات تتصاعد فيها دراما الحياة، وتتعقد فيها وتضع الإنسان أمام موقف قدري مصيري، وعليه في تلك اللحظات أن يقرر.. ويحسم الأمور.. وعلى ضوء اختياره، يتقرر مصيره، حيث يقف بكل كيانه وتراثه ومؤهلاته وأعماله أمام محكمة التاريخ.

القائد العسكري الثائر سعد صايل، تعرض لهذا الموقف الذي يبين عن معدن إنساني فريد، ففي حرب أيلول عام 1970 كان قائدا مسموع الكلمة معروف الهوية، وكان موضع تقدير وإعزاز، فهو كفاءة عسكرية وقيادية، درس في أعظم الكليات العسكرية في بريطانيا والولايات المتحدة ومصر والعراق والباكستان، وهو موهبة أكاديمية في الهندسة العسكرية القائمة على الدراسة والوعي والتفوق، ولكن لحظة الاختيار كانت حاسمة، ولم يتردد سعد صايل، انضم هو وقواده وجنود "لواء الحسين بن علي" إلى صفوف الثورة الفلسطينية. إنَّ معدنه النبيل، يبين عن أصالة ووطنية وصدق انتماء، ليس من السهل أن تجد أمثاله، ونحن، بعد أن طوى التاريخ هذه الصفحات الحزينة السوداء، لا نريد أن نفتح جراحا، ولكننا لكي نفي

القائد العسكري سعد صايل حقه، يجب أن نقول أن مئات الطاقات والقدرات كانت تتعاطف مع الثورة الفلسطينية بالكلمات والشعارات، ولكن عند لحظة الاختيار الحاسمة كانت تسكت أو تتردد أو تتهرب.

سعد صايل .. رجل المواقف الصعبة

كان قليل الكلام، عاشق للهندسة والعسكرية، وطنيا حازما، جريئا، لا يهادن، ولا يتردد، تصدى لكل عدوان على شعبه، ورجاله، وجنوده بحزم.

عندما قررت "فتح" أن تخوض معركة الكرامة، كان ممدوح صيدم "أبو صبري" يتصل ببعض ضباط الجيش الأردني، وكان سعد صايل في طليعتهم، إنها اللحظة الحاسمة التي قرر فيها ابن "كفر قليل" أن يختار.

لقد كان يعرف بحكم خبرته وثقافته العسكرية، أن المعركة ليست متكافئة، ولكن قادة فتح قرروا خوض المعركة والاستشهاد لأن ذلك سيكون رسالة للعالم العربي بأسره، ولكن القيادة التي كان سعد صايل أحد رموزها، عرفت كيف تتعامل مع قوات العدو، وبالتالي إلحاق هزيمة عسكرية بالجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر!، وأجبرت قوات العدو على الانسحاب تاركة عتادها ودباباتها المحترقة.

إنها شخصية سعد صايل، الرجل الذي تضعه الظروف في مفترق الاختبارات، فيعرف كيف يواجه وكيف يختاروكيف يحارب، إنه الشخصية التي تجمع بين الدراسة والدراية والخبرة والشجاعة والمواجهة والتحدي، بعيدا عن الغوغائية والمجاملات الشخصية، كان دائما سعد صايل رجل المواقف الصعبة.

شاءت الأقدار أن يعيش سعد، وهو في الثامنة عشرة من عمره، ابن قرية "كفر قليل" نكبة شعبه عام 1948، ورأى بعينيه إذلال وتشريد أهل يافا وحيفا والمثلث والجليل، فاتخذ قرارا سرعان ما نفذه، لقد قرر الشروع في العمل من أجل تحرير ما اغتصب من فلسطين، ففي مطلع الخمسينيات التحق بالجيش الأردني لمقاومة مطامع الصهيونية، وإعادة من شرد من أهله إلى أرضهم وديارهم.

عندما كان طالبا في مدرسة بلاطة الابتدائية والتي تبعد عن قرية كفر قليل 2كم، وبعد إنهائه المرحلة الابتدائية التحق بمدرسة الصلاحية في نابلس على بعد 3كم من القرية ليواصل دراسته العلمية، وحصل على شهادة الثانوية عام 1950.

الثائر .. تصنعه مفردات القهر

وقد تأثر إلى حد كبير خلال دراسته بتطورات أحداث النكبة عام 1948، إذ لجأ كثير من الفلسطينيين من خارج فلسطين وداخلها إلى مخيم بلاطة، الذي أنشئ على مقربة من قرية بلاطة ليفصل المدينة عن القرية، وكان هذا المخيم هو الطريق الذي اعتاد سعد الطالب اليافع أن يمر منه كل يوم من والى مدرسته ليرى المأساة والمعاناة الصعبة التي يعيشها أبناء شعبنا بشكل يومي، ما دفعه إلى اعتناق ثقافة المقاومة والإصرار عليها، وليلتحق بعد إتمامه الدراسة الثانوية فورا عام 1951 بالكلية العسكرية الأردنية وليتخصص في "الهندسة العسكرية".

وقد اجتهد في تحصيل علم الهندسة العسكرية حيث درس ذلك في الكلية العسكرية في باكستان، ومن ثم في بريطانيا في كلية سانت هيرتز التي درس فيها جلالة الملك حسين، كما درس علوم الأركان الحربية في أمريكا في كلية ويست بوينت التي درس فيها الجنرال أيزنهاور رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق، كما

درس فيها كبار الضباط والقادة العسكريين التاريخيين، وصعد سلم المناصب والرتب العسكرية في الجيش الأردني بكفاءة واقتدار، وصمد على رأس وحدته العسكرية في كل المواجهات القتالية التي فرضت عليه.

وجد روحه في فتح

وبعد انطلاقة الثورة الفلسطينية عام 1965، وجد روحه فيها، ومن هنا بادر إلى نسج علاقات مبكرة مع روادها، وبعد هزيمة 1967 لم يجد قادة فتح الأوائل صعوبة في ضمه لصفوفهم.

وأصبح العميد أبو الوليد ابن قرية "كفر قليل" أحد أبنائها، وقبل أن تندلع أحداث أيلول عام 1970 في الأردن كان ضباط وجنود لواء الحسين مشاة المتمركز في "كفر نجة" والأغوار محط اهتمام قيادة حركة فتح والقيادة الفلسطينية.

وبرزت في هذه الأحداث أصالة ووطنية وشجاعة سعد صايل، فقد جعل من جميع ضباط وجنود لواء الحسين مشاة، بكافة أفراده وكامل معداتهم الحربية قوة مساندة للثورة في عملياتها ضد الاحتلال، وجعل من نفسه مدافعا صلبا وعنيدا عن كل ما يتعلق بالثورة ومصداقيتها وخططها ومعاركها.

ومنذ انخراطه في الثورة تميز "أبو الوليد" بحنكته القيادية وخبراته العسكرية وكفاءته، وقدراته العلمية العسكرية، فأحبه الجنود والقادة وعرفوا له فضله وريادته، وقدروا شجاعته وإخلاصه فقد كان حبه لفلسطين والعمل من أجلها مقياسه الوحيد في الحكم على الأشخاص والمواقف، وقد امتاز بمواقفه الوطنية الوحدوية الصلبة وكره الاستعراض والغوغائية، كما كان يكره التعصب الحزبي والفصائلي. وعرف دائما كيف يفرق بين الوفاء لفلسطين والوفاء لحزب أو تنظيم أو زعيم، كما عرف كيف يفرق بين المقاومة القائمة على العلم والإخلاص، وبين المقاومة التي يقودها الجهل والنفاق والارتزاق.

سعد صايل .. الجذور التي صنعت القائد

ولد الشهيد القائد سعد صايل سلمان بتاريخ 1932/9/30 في قرية "كفر قليل" التي تبعد عن مركز مدينة نابلس اقل من 3كم، لأبوين مكافحين، كانا يتحديان مصاعب الحياة، وكان لديهما ابن يكبر الشهيد بعشر سنوات. أي أن عائلة الشهيد، كانت عائلة صغيرة تنسجم مع ثقافة وظروف تلك الحقبة الزمنية، فهي مكونة من أربعة أفراد، هم الأب والأم وولدين.

وكان والد الشهيد الحاج صايل سلمان يعمل موظفا في مصلحة الأشغال العامة كمسؤول عن شق الطرق، كما كان يعمل في الزراعة وبذلك اكتسب مكانة طيبة بين أهالي قريته والقرى المجاورة، وليصبح أحد وجهاء المنطقة. ومن رحم هذه البيئة الغنية بالإرشاد والتاريخ ولد سعد صايل ليبدأ مشوار حياته.

عاشق الهندسة العسكرية

بالإضافة إلى الدراسة الأكاديمية التي أنهاها سعد صايل بتفوق التحق بعد ذلك بالعديد من الدورات وفي أرقى الأكاديميات العسكرية العالمية. فقد درس الهندسة العسكرية في بريطانيا، ومصر، والعراق، والولايات المتحدة الأمريكية، كما التحق عام 1966 بدورة عسكرية في كلية القادة والأركان في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد عزز ثقافته العسكرية ونمى معارفه وخبراته الثورية بزيارة ودراسة البلدان الثورية التي حققت انجازات تاريخية عظيمة مثل روسيا والصين وكوبا وفيتنام والثورة الجزائرية والثورة المصرية وثورات العالم الثالث برفقة أبو عمار وممدوح صيدم ومحمود عباس وفاروق القدومي وخليل الوزير، ويذكر أن سعد صايل كانت له حوارات مطولة مع الجنرال الثائر الفيتنامي الجنرال جياب، كما كانت له لقاءات ومقابلات مطولة مع القائد الكوبي المعروف فيدل كاسترو.

لا تتركوا أرضكم

بحسه الوطني، ورؤيته الإستراتيجية، نصح أبناء قريته بالعودة إلى أرضهم، وعدم مغادرتها، وكان ذلك على أثر اندلاع حرب عام 1967 حيث احتلت إسرائيل الضفة الغربية والقدس.

وكان سعد صايل في تلك الفترة مقيما في الأردن، في معسكر الزرقاء الخاص بالضباط، وعلى أثر الأحداث جاء إليه الكثيرون من أبناء قريته فقد لجأوا إليه، ولكنه بدوره أقنعهم بالعودة إلى قريتهم، ومن ثم قام بتأمين الطريق لهم، ولم يكن هذا غريبا من سعد فقد تمسك والده الحاج صايل مع قلة من الناس بأرضهم حيث رفض الحاج أن يغادر بيته وتاريخه ولم يفكر لحظة بالخروج مطلقا ولم يتخلّ عن شبر من أرضه لمحتل غاشم معتدٍ أثيم.

قائدا للواء اليرموك

منذ أن التحق سعد صايل بالجيش الأردني في مطلع الخمسينيات ليكون في طليعة من يتصدون لتحرير فلسطين وردها إلى أصحابها، وقد آمن وهو في شبابه الباكر بأهمية العلم والتخطيط، ولذلك اجتهد في تحصيل علم الهندسة العسكرية في كلية "سانت هيرتز" للعلوم العسكرية في بريطانيا، كما درس علوم الأركان الحربية في أمريكا، وخاض العديد من الدورات المتخصصة بالدفاع الجوي والجسور وتصنيفها في الباكستان والعراق ومصر، ونظرا لتفوقه في الدراسة وكفاءته العسكرية والعلمية صعد سلم المناصب والرتب العسكرية في الجيش الأردني بكفاءة وسرعة، وصمد على رأس وحدته العسكرية في العديد من المواجهات القتالية.

ورغم ملاحظاته الكثيرة حول المواقف السياسية المتطرفة، والمسلكيات الخاطئة لبعض قيادات وكوادر الفصائل، إلا أن أبو الوليد ميز الأخطاء التكتيكية الضارة عن الأخطاء الإستراتيجية المدمرة، وعندما حانت لحظة الحقيقة انضم إلى الثورة الفلسطينية.

وبعد خروج قوات الثورة من الأردن عام 1970 - 1971 شرع أبو الوليد في تنظيم وتشكيل مجموعات من جنود وضباط الجيش الأردني الذين التحقوا بقوات الثورة الفلسطينية، وشكل منهم قوة عسكرية مقاتلة تحت اسم "لواء اليرموك" حيث لعبت هذه القوة دورا مميزا في تثبيت وجود الثورة في لبنان، وفي الدفاع عن المخيمات في وجه الاعتداءات التي كانت تتعرض لها في ذلك الوقت.

وبعد استقرار أوضاع الثورة في لبنان عام 1973 لعب أبو الوليد دورا حاسما في إعادة تنظيم وتأهيل قوات الثورة وبخاصة قوات فتح وأدخل عليها التشكيلات والرتب النظامية.

كان قيادة وكفاءة نادرة

انتخب سعد صايل عام 1980 عضوا في اللجنة المركزية لحركة فتح، حيث تولى قيادة غرفة العمليات المركزية، وكان قائدا للقوات المشتركة الفلسطينية مع الحركة الوطنية اللبنانية، وجمع بمقدرة عالية بين دور القائد العسكري والقائد السياسي.

وامتاز بميدانيته فكان ممن لا يصدق إلا ما يشاهده بعينيه ويلمسه بيده، ولا يتعامل مع الشعارات الرنانة، بل كان يجري الدراسات، ويعرف موازين القوى، ويعتمد على دوائر المعلومات الموثقة، وكان يحترم التعددية، ويصغي لكل الآراء في اتخاذ أي موقف. وكان يمقت التزلف والتعدي على حقوق الآخرين، وبهذا حظي باحترام القوى الوطنية الفلسطينية واللبنانية الواقعية منها والمتطرفة. واستطاع أن يقوي شوكة الجبهة العربية المشاركة في الثورة، وخلال ترؤسه لغرفة العمليات المركزية نمت قوى الثورة وتطورت قدراتها العسكرية واستطاع القائد العسكري الفذ سعد صايل أن يرد على غارات طيران الجيش الإسرائيلي على المخيمات ومواقع القوات الفلسطينية في تموز عام 1981، وأدار بكفاءة وشجاعة "معركة المدفعية" الشهيرة التي أدارها مع عدد من رفاقه، حيث استطاعوا أن يضربوا المدن الإسرائيلية لأول مرة.

ومع بداية عام 1982 أدرك أبو الوليد أن المواجهة الشاملة مع الجيش الإسرائيلي قادمة لا محالة، فبادر إلى جمع آراء وتصورات الجميع لطبيعة المعركة القادمة، وصاغها في خطة دفاعية واحدة، وتابع ميدانيا تطبيقها على الأرض بعد مصادقة القائد العام أبو عمار عليها.

وتعد معركة بيروت عام 1982 من أعظم المعارك التي خاضتها الأمة العربية ضد الجيش الإسرائيلي بُعيد حرب أكتوبر، حيث استطاع الخبراء والمحللون العسكريون أن يقفوا على حقيقة صمود المقاتل الفلسطيني ثلاثة شهور كاملة في وجه الحصار، مما سجل حدثا تاريخيا نادرا كان أبو الوليد مهندسه بامتياز إلى جانب القيادة الشجاعة الفذة للرئيس ياسر عرفات.

وعندما نقول بطل بيروت عام 1982 فإن ذلك يصدق بكل أمانة على الرجلين: الشهيد ياسر عرفات والشهيد سعد صايل.

مواجهة شجاعة

ومن المواقف الرائعة للشهيد الراحل ما حدث خلال معركة بيروت، فقد وردت إشارة ذات يوم تفيد أن الجنرال (كالاهان) قائد قوات الأمم المتحدة في جنوب لبنان يطلب لقاءً عاجلا مع الجنرال سعد صايل، وقال إنه سيحضر إلى بيروت على متن طائرة هليوكبتر في أي ساعة يحددها الجنرال أبو الوليد.

وقف اللواء سعد صايل وقفة استعداد انتظارا لتعليمات القائد.

سأل أبو عمار: أين ستلتقون؟

وقد تم تداول الآراء حول مكان اللقاء، وأخيرا قال الرئيس أبو عمار: إن اللقاء يجب أن يتم في الـ "17"، وهي غرفة قيادته المعروفة بالرغم من الدمار الشديد الذي لحق بها.

وهنا تظهر شخصية سعد صايل ومدى حسمه، فقد طلب من الشباب والجنود أن يكون المقر المدمر قد تم تنظيفه ودهانه وتركيب الكهرباء والثلاجات وكل ما يتعلق بمنظر وهيبة المقر في وقت قصير.

ومن العجيب أن الشباب الذين كانوا يعملون في تهيئة المكان قد نجحوا بالفعل بإعادة كل شيء إلى مكانه وتم انجاز المكان استعدادا لاستقبال الضيف الهام قبل الخامسة والنصف.

لقد تم تنظيف المكان بشكل تام، كما تم إعادة تركيب الزجاج، وتركيب كل الأشرطة الكهربائية، وأجهزة التبريد حيث عادت إلى العمل، كما أن المقر من الداخل والخارج كان يلمع بصورة رائعة، وعندما دخل سعد صايل وجد المكان نظيفا ومبردا، فقال للشباب: إن الجنرال كالاهان يحب الليمونادة الطازجة والشاي فحضروا كل شيء. وعندما لاحظ اللواء سعد صايل أن الأمور تمت على أحسن ما يرام ابتسم نصف ابتسامة كما يقول بسام أبو شريف لأنه كان نادرا ما يبتسم.

ويواصل الأخ هاني الحسن رواية ما حدث فيقول: توجهنا للمكان وكان الأمر فعلا مثيرا للإعجاب. فخلال ساعتين من الزمن أتم الشباب تنظيف المدخل من الركام، وأعادوا كافة الأمور إلى مقر الرئيس أبو عمار إلى طبيعتها. وكان المقر باردا في ظل حرارة بيروت ورطوبة صيفها.

وفي الساعة السادسة والنصف مساء وصل الجنرال كالاهان يرافقه اثنان من ضباط الأمم المتحدة، صافحناهم وتوجهنا نحو طاولة الاجتماع، اتخذنا مواقعنا في جانب من جوانب الطاولة اللواء سعد صايل وهاني الحسن وبسام أبو شريف وعلى الجانب المقابل كان الجنرال كالاهان وضابطاه اللذين بقيا واقفين. وأدى الجنرال كالاهان التحية العسكرية للأخ أبو الوليد، فبادله التحية العسكرية، لكنه لم يأذن له بالجلوس بعد وحسب الأعراف لا يمكن له أن يجلس قبل أن يدعوه اللواء سعد صايل إلى ذلك. كان الأمر يبدو لنا كما يقول بسام أبو شريف كأنه أحجية. فاللواء سعد صايل وهو من العسكريين البارزين الذين تخرجوا من أهم كلية عسكرية في العالم "ويست بوينت الأمريكية"، وكان الجنرال كالاهان يعلم ذلك، وانطلق صوت أبو الوليد الحازم السريع كأنه طلقات المسدس وقال بالانجليزية بوضوح وبهدوء ولكنه الهدوء القاسي الرزين:

- جنرال كالاهان، لقد خُنت شرفك العسكري، فلقد سمحت للقوات الإسرائيلية أن تمر عبر مواقعك دون مقاومة.

فأجاب الجنرال كالاهان وهو يقف وقفة استعداد:

- سيدي الجنرال، أنت تعلم الوضع على الأرض أكثر مني، إن حجم الاندفاع الإسرائيلي كان كبيرا إلى الحد الذي لا يمكن لي ولضباطي منعه أو التصدي له.

فرد سعد صايل عليه بحزم قائلا:

- جنرال، إن شرفك العسكري كان يقتضي منك أن تطلق حتى ولو رصاصة واحدة من مسدسك. هكذا تعلمنا الأخلاق العسكرية أليس كذلك؟

وطأطأ كالاهان رأسه، وعندها دعاه أبو الوليد للجلوس، وأخذ كالاهان يشرح حجم الهجوم ولم يكن يتوقع وصول الجيش الإسرائيلي إلى بيروت.

وبعد هذا الحوار اعتذر أبو الوليد إلى كالاهان قائلا:

- أنا أعلم أن الوقت ضيق، وعليّ أن أعود إلى غرفة العمليات، لكني أريد أن أقول لك إنني بدأت بتحصين بيروت.

فرد كالاهان على الفور:

- ولكن يا جنرال بيروت لا يمكن تحصينها.

فابتسم أبو الوليد قائلا:

- دعهم يظنون هذا.

وقوفا.

تحية عسكرية. حرس الشرف يأخذ الاستعداد وفجأة يصل الرئيس ياسر عرفات.

جنرال كيف حالك بادره أبو عمار بالتحية.

أدى الجنرال كالاهان التحية للرئيس الذي كان يحمل عصا قصيرة، وأجابه:

- الوضع صعب سيدي الرئيس.

فأجابه أبو عمار بسرعة:

- سيكون صعبا عليهم، لن أؤخرك لدي جولة في كافة المواقع.

وغادر أبو عمار

وغادر الجنرال.

الخروج من بيروت

وبعد ذلك الصمود الأسطوري الذي تحقق في ظل الصمت العربي والدولي المشهود لهما. وفي أوائل آب أدركت قيادة "م. ت. ف" أن رحيلها عن بيروت بات أمرا لا مفر منه. وسعى أبو الوليد إلى تجيير صمود القيادة والمقاتلين لصالح تحسين شروط الخروج وتوفير حماية مضمونة للمخيمات وتحقيق مكاسب سياسية للقضية الفلسطينية.

وبعد مفاوضات غير مباشرة شارك فيها أبو الوليد مع المبعوث الأمريكي "فليب حبيب"، تم التوصل يوم 13 آب 1982 إلى اتفاق لوقف إطلاق النار والفصل بين المتحاربين، نال موافقة جميع أعضاء القيادة الفلسطينية. وضمن الاتفاق انسحابا مشرفا للقيادة ومقاتليها تحت إشراف قوات متعددة الجنسيات أمريكية، فرنسية، وايطالية، وكذلك المحافظة على أمن وسلامة أبناء المخيمات بعد خروج المقاتلين. وقبل مغادرة أول قافلة من المقاتلين ناقشت القيادة الفلسطينية مسألة خروجها من بيروت، ودعا بعض أعضائها إلى وضع ترتيبات سرية لخروج أبو عمار وأعضاء القيادة خشية الاغتيال. خاصة وان دخول الميناء وركوب البواخر يتم على مرأى من القوات الإسرائيلية والانعزالية. لكن أبو الوليد رفض الفكرة من أساسها وقال:

- "الحماية تتم بتنظيم مراسم رسمية لخروجها".

في حينه شكلت القيادة الفلسطينية لجنة بقيادة أبو الوليد أشرفت على تنظيم عملية الرحيل. وقررت اللجنة بتوجيه من قائدها السماح للمقاتل الخروج بتجهيزته الشخصية وعتاده وسلاحه، وأعدت القوائم لكل باخرة، وحددت الملعب البلدي مكانا لتجمع المقاتلين. وصباح كل يوم من أيام الرحيل كان أبو الوليد يصر على النزول إلى ارض الملعب لتفقد الراحلين.

لا ترحلوا .. وإن رحلتم فخذونا معكم

وخلال لحظات الوداع الصعبة، استمع أبو الوليد بألم مصحوب بدموع القلق لصيحات مؤلمة وجارحة من النسوة الفلسطينيات واللبنانيات المودعات للقيادة والمقاتلين الراحلين تقول: "لا ترحلوا.. ارفضوا الخضوع للمؤامرة العربية الدولية، حتى لو دمرت بيروت وكل العواصم العربية. وإن رحلتم خذونا

معكم ولا تتركونا تحت رحمة حزب الكتائب والجيش اللبناني والإسرائيليين". وكانت تلك الصيحات الحارة الصادقة تعكس حقيقة مشاعر كل الفلسطينيين في لبنان وعلى كل المستويات. إلا أن مشيئة الأقدار لم ترحم أطفال ونساء وشيوخ وشباب فلسطين في لبنان رغم صمودهم الجبار فترة ثلاثة أشهر.

بعد رحيل الغالبية الساحقة من القوات الفلسطينية من بيروت إلى البلدان العربية المتفق عليها، ورحيل أبو عمار وأركانه باتجاه الأراضي اليونانية، سيطرت قوات الجيش اللبناني "والقوات الانعزالية" على معظم مناطق وإحياء بيروت الغربية الخاضعة للسيطرة الفلسطينية والوطنية اللبنانية. وصار الخروج الفلسطيني المدني والعسكري من "صبرا وشاتيلا والأحياء اللبنانية" فيه مخاطر كبيرة. وبات الوصول إلى المستشفيات لإخراج الجرحى ونقلهم إلى بواخر الترحيل الراسية في ميناء بيروت مغامرة كبيرة. وبالرغم من ذلك كله أصر "أبو الوليد" يوم 1982/9/1 على أن يودع هو ومن تبقى من أعضاء المجلس العسكري الفلسطيني الأعلى مدينة بيروت بأداء زيارة رسمية لمقبرة الشهداء الواقعة في حي "قصقص". ونزولا عند رغبته سار الجميع مشيا على الأقدام وهم يحملون ما أمكن ترتيبه من الزهور. وفي الطريق إلى مقبرة الشهداء حيث يرقد الحاج أمين الحسيني وآخرون من شهداء حرب 1948 وشهداء الثورة، تمنى الجميع لو كان بالإمكان ترحيل كل سكان المخيمات الفلسطينية من لبنان بعد أن تحملوا من العذاب ما لم يتحمله بشر، وأصبح بقائهم في خطر.

والمظاهرات كانت في شوارع تل أبيب!

وبعد تلاوة الفاتحة على أرواح الشهداء، تمم أبو الوليد قائلا "يجب أن لا ننسى أن الزعماء العرب أهانوا الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين. وأنه لم يجد مكانا يقيم فيه، وعاش في العراق وطرد منها كما طرد من مصر وسوريا".

وفي طريق العودة تساءل أبو الوليد بحزن شديد وبصوت خافت: "هل ستطأ أقدام أولادنا أرض فلسطين؟ وهل سنستطيع يوما ما تنفيذ وصية الشهداء بنقلهم إلى أرض الآباء والأجداد؟ أم أن ممارسات بعضنا وانحطاط الوضع العربي، وهزيمتنا في بيروت ستقود الآخرين لنبش قبورهم ورمي عظامهم في المزبل؟ وهل سنجد لنا في هذا الوطن العربي الكبير مكانا ندفن فيه، بعد أن نقضي ما تبقى لنا من عمر في هذه الدنيا الزائلة؟ وهل سنجد نحن الأحياء من يدفننا باحترام كما دفنا من سبقونا من الشهداء؟ وماذا سيقول التاريخ عنا..؟"

طرح هذه الأسئلة من "أبو الوليد" كان له في حينه ما يبرره، فعلاقة الثورة الفلسطينية بمعظم الدول العربية لم تكن على ما يرام، وكان خروج أكبر تظاهرة في شوارع تل أبيب، وليس في عاصمة عربية، استنكارا للهجوم الإسرائيلي ومجازر صبرا وشاتيلا شاهدا صادقا على مدى انحطاط الوضع العربي.

وعلى ظهر الباخرة اليونانية، التي ركبها آخر دفعة من القيادة والكوادر والمقاتلين باتجاه ميناء طرطوس السوري، كان أبو الوليد قليل الكلام كعادته. وقبل النزول عن ظهرها بادر ورتب موعدا للقاء المتواجدين من المجلس العسكري في البقاع اللبناني وقال:

- "الوقت ثمين وعلينا أن نلتقي خلال 72 ساعة كحد أقصى، وقَدَرُنا إكمال المشوار والوفاء بالعهد الذي قطعناه على أنفسنا".

قدرنا إكمال المشوار وعدم إلقاء الرسالة حتى الشهادة

أمامنا مهام كبيرة كثيرة أولها إعادة تنظيم وتشكيل قواتنا المتواجدة في البقاع والشمال اللبنانيين، وإدارة المعركة مع العدو، ومساعدة الحركة الوطنية اللبنانية في استنزافه في منطقتي الجبل والساحل. إمكاناتنا البشرية والتسليحية ليست قليلة، ويجب توظيفها في إثبات فشل الهدف الاستراتيجي للهجوم الإسرائيلي. لا خوف على بقاء م. ت. ف. كجسم سياسي، ستبقى حية طالما هناك شعب اسمه الشعب الفلسطيني، والمهم تأكيد بقاء جسمها العسكري "حيا فاعلا" خاليا من كل مقصر ومنهزم. وبعد أقل من 72 ساعة عاد أبو الوليد إلى لبنان وشرع في ترجمة أفكاره.

وكان همه استخلاص الدروس المستفادة من تجربة الثورة في لبنان ومن الهجوم الإسرائيلي، ووضعها موضع التطبيق على الأرض وفي العلاقة اليومية مع الجماهير اللبنانية وقواها الوطنية، وأيضا في العمل اليومي الدؤوب ضد الاحتلال. وخلال جولاته على قواعد المقاتلين شدد أبو الوليد على أهمية إبراز دور المقاومة الوطنية اللبنانية في مقاومة الاحتلال وكان يقول "وجود مقاومة لبنانية فعالة ومقاومة فلسطينية مستمرة يخلق مناخا لانبعاث مقاومة عربية شاملة.

في السابق كنا نقطع مسافات طويلة، ونجتاز موانع وعقبات كثيرة حتى نخلق التماس ونشتبك مع قوات الاحتلال، أما الآن فالقوات الإسرائيلية باتت في متناول اليد. انتشارها واسع وخطوط إمدادها طويلة وبالإمكان إرهاقها واستنزافها، في السابق قاتلت الحركة الوطنية اللبنانية تحت رايات الثورة الفلسطينية، ومستجدات الصراع تفرض علينا القتال تحت رايات الوطنيين اللبنانيين. ليس مهما الإعلان عن أعمالنا، إسرائيل ستقوم بهذه المهمة، والعمل الناجح يعلن عن نفسه.

فاس الأولى كانت فأسا على رؤوسنا

وعندما التقى الملوك والرؤساء العرب يوم 1982/9/6 في قمتهم الثانية عشرة في فاس قال أبو الوليد: "فاس الأولى كانت فأسا على رؤوسنا. علينا منع الزعماء العرب في قمتهم الجديدة من تجاوز منظمة التحرير وسلبها تمثيل شعبها. جمود عملنا العسكري يضعف موقفنا ويسهل عليهم تجريدنا من السلاح والسير في جنازة تشييعنا ونحن أحياء. المهم رفع اليقظة من عملائهم المتواجدين في صفوفنا". ولاحقا رفض كل العروض والإغراءات العربية وبخاصة التي قدمت له لقيادة "حركة تصحيحية داخل منظمة التحرير"، وخلق "م. ت. ف. ثورية بديلة". وقال: "المؤامرة بدأت، والحياة وقفة عز، وهناك من العرب من يحاول تدمير الحركة الوطنية الفلسطينية كما دمروها عام 1936، وبعد هزيمة 1948". وقرر مقاومة المؤامرة والتصدي بحزم لأدواتها الفلسطينيين المأجورين مهما كان الثمن حتى لو كلفه حياته.

وفور سماعه نبأ اغتيال بشير الجميل قائد القوات اللبنانية يوم 14 أيلول 1982 دعا أبو الوليد المتواجدين من المجلس العسكري الفلسطيني إلى لقاء عاجل لتدارس الموقف وفي الاجتماع قال: "كلكم تعرفون إن بشير وصل رئاسة الجمهورية اللبنانية على ظهر دبابة إسرائيلية. وبصرف النظر عن منفذ عملية القتل، فالعملية كبيرة وأكبر من طاقات القوى الوطنية اللبنانية، والمهم أن لا ندفع نحن الفلسطينيين ثمن اغتياله كما دفعنا ثمن طموحاته الرعناء". وبعد سماعه نبأ المجزرة التي ارتكبتها القوات اللبنانية يوم 17 أيلول بقيادة ايلي حبيقة في صبرا وشاتيلا. قال "عار علينا الصمت أمام استباحة دم أطفالنا ونسائنا

وشيوخنا العزل من السلاح. ويجب أن لا ننسى فالذاكرة الحية تصون الحقوق". وراح يواصل العمل ليل نهار لحماية الوجود المدني الفلسطيني، وحماية استقلالية القرار الفلسطيني وحينها قال وردد دائما المقولة الشهيرة له (نموت ليعيش شعبنا وتحيا فلسطين) وقد تجسدت مقولته بالعمل والقول، إلا أن يد الحقد والغدر والخيانة اغتالته يوم 27 أيلول أول أيام عيد الأضحى المبارك حيث تعرض موكبه لكمين على الخط الرابط ما بين منطقتي الريان وبعلبك أثناء زيارته التفقدية لقوات الثورة في تلك المنطقة قبل أن يحقق أهدافه وقبل أن تجف دماء شهداء صبرا وشاتيلا. وكان في طريقه لعقد مؤتمر صحفي يتحدث فيه عن ملابسات حرب بيروت عام 1982.

نموت ليعيش شعبنا وتحيا فلسطين

وأخيرا أجزم أن هذه الكلمات لا توفي الشهيد القائد والثائر البطل أبو الوليد حقه، وأتمنى أن يقوم طرف فلسطيني إلى تخليد ذكراه، وجمع وتوثيق تاريخه المجيد، وتاريخ كل رموز الحركة الوطنية الفلسطينية المعاصرة. فسيرة إعلامها هي سيرة الثورة الفلسطينية المعاصرة، وهي اختصار لمسيرة الأمل والألم الفلسطيني في النصف الثاني من القرن العشرين، ففي المنافي والشتات كنا نسمع أن البعض سيقوم بتدوين يوما ما تاريخ الثورة بصدق، وأنهم سينقلون رفات الشهداء الذين رووا بدمائهم تراب لبنان وسوريا واليمن وتونس والأردن والعراق ومصر وفرنسا، حيث أن هذه الدماء ستنبت أشجار الحرية وتعطي أزهار وعطر وشذى البطولة ولعل الربيع العربي اليوم أحد ثمار هذه الدماء الغالية. إلى ذلك تبقى مهمة تعريف الأجيال بحلاوة تاريخهم ومرء قائمة وأمانة تستحق من الجميع، اليوم قبل الغد، جهدا مضاعفا، فالتأخر في توثيق التاريخ يعرض بعضه للتبديد، ويحوله إلى ذكريات تاريخية شخصية تتبخر دروسها وعبرها المفيدة مع تآكل ذاكرة حاملها.

إن فقدان تراث أبو الوليد الغني وخبراته القيمة خسارة للشعب الفلسطيني، يصعب تعويضها. كيف لا وهو الذي جسد قولا وعملا باستشهاده ولسان حاله يقول: "نموت ليعيش شعبنا وتحيا فلسطين".

يقول عنه الرئيس عرفات:

- لقد كان أبو الوليد ركنا شامخا من أركان بنائنا الوطني، كان عسكريا مثاليا، مخلصا في أداء مهامه، كفؤا في إدارة شئون قواتنا المنتشرة على مساحة الوطن العربي كله، وكان رحمه الله نموذجا في الرأي والمثابرة والعطاء.

ويقول عنه جلالة الملك حسين مخاطبا في قمة فاس أمام الملوك والرؤساء العرب:

- إن صمودكم، وأداءكم الرائع في بيروت ارتبط بجنرال يفخر الجيش الأردني أنه كان من بين قادته، إنه الجنرال الكفء سعد صايل.

لقاء في جنان الخلد

أخي سعد صايل..

عندما نشرت الصحف نبأ رحيل عقيلتكم الفاضلة، رفيقة عمركم المناضلة ميسر عبد الجبار عامر، إيمانا مني بأنها كانت مناضلة على درب الفداء والشهادة وكانت خير سند لكم وخير مؤازر في كل مرحلة من مراحل عمركم النضالي العظيم، كل ذلك بعث في نفسي الأشجان والدموع، وجعلني أمام الموت أقف أمام

حقيقة رائعة وهي أن الحياة مجرد رحلة قصيرة علينا أن نجعلها أجمل وأعمق وأروع بصحبة نماذج إنسانية رائعة مثل القائد الرائد البطل الشهيد أبو الوليد ومثل الأخت الكريمة المناضلة أم الوليد.

كما أني أقدم أسمى آيات التواصل الوجداني والحزن والشجن لأبناء القائد الراحل وأكرر عزائي لهم في وفاة والدتهم ورحيلها في دمشق.

إني ابتهل إلى الله ضارعة بكل إخلاص وصدق أن يجمعكما في جنان الخلد كما جمعكما في مشوار العمر على درب النضال والعطاء والثورة من أجل فلسطين.

(2013/4/26)

فوزي أحمد النمر

كانت إذاعة العاصفة في الستينيات تتواصل معه (افتح يا سمسم)
لينفذ في العمق وفي الداخل أجرأ العمليات العسكرية البطولية.
على قارب بدائي في ركن معزول من شاطئ حيفا كان يغوص هو ورفاقه إلى أعماق البحر ليستخرجوا الأسلحة والمتفجرات بثقة وفدائية نادرة.
حكمت عليه المحاكم العسكرية بالسجن 710 سنة، ولكن أقسى من هذا الحكم أن يمضي شهيدا وهو يتمنى زيارة عكا ليكحل ناظريه برؤيتها قبل أن يصعد إلى العلا.
عكا مدينة التاريخ والأبطال والموج لم تطأطئ رأسها لنابليون ولم تركع أمام أحمد باشا الجزار ولكنها حنت هامتها إجلالا لبطولة ابنها القائد الشهيد.

كان أنموذجا لقائد تاريخي.. أخذ من عكا الصلابة والتاريخ والصمود والشموخ، وعاش بهذه القيم قائدا ومناضلا وفي أعماق الزنازين، وعلى شواطئ غزة وتونس، وأهدى مدينته مسقط رأسه فصلا رائعا من فصول البطولة.

في تلك الليلة، لم يكن أحد يعرف ماذا يخبئ القدر داخل أسوار عكا، خلف ذلك البيت العالي المطل على شواطئ الأبيض الأزرق، وعندما تعالت أصوات الرياح والأمواج وهي تصرخ بقوة تكاد تصطدم بالأسوار، وهدير بحر عكا كأنه يعلن غضب السماء.

كان المساء قد حل على المدينة، عندما سُمع صوت صراخ وبكاء امرأة وصوت يرتفع من أعلى نقطة فوق أسوار البيت القديم ليتلوه سكوت، ثم يعلو صوت طفل ببكاء قوي، ذلك الصوت الجميل وكانت أفراح لا توصف من الأب الذي رزق بابنه البكر فوزي، وذاع الخبر في المدينة، ابن لعكا لأبي فوزي، لقد رزق بابن بعث الفرحة والسرور في أرجاء مدينة عكا، حيث انتشر الخبر، وقدم "المغلي" لأهل عكا والمهنئين بميلاد طفلٍ سيكون بطلا من أبطال المدينة التاريخية الخالدة في موكب من الأفراح والأغاني والأهازيج وغناء النساء للاغاني الشعبية الجميلة على إيقاعات الآلات الشرقية وخاصة العود حيث يتميز أهل عكا بحبهم الشديد للفن والغناء وخاصة النساء كما في عكا ونابلس، حيث ترتفع دقات العود عبر الأنامل

الفلسطينية الرقيقة وتنطلق الحناجر مرددة الألحان المصرية الأصيلة مثل يا صلاة الزين وغيرها من الألحان التي كانت تملأ سماء عكا بالفرح والطرب الأصيل.

دموع وذكريات على شاطئ تونس الخضراء

في مقبرة الشهداء. وكان الخوف يسيطر علينا جميعا حتى لا يقع المزيد من القتلى والدماء، على بعد أميال من البحر المتوسط في تونس الخضراء، كان الجو حزينا كئيبا مؤثرا، وكان مشهد تونس سماء تبكي حزنا على أرواح سبعين شهيدا استشهدوا في الغارة الجوية التي شنتها إسرائيل على مقر أبو عمار في حمام الشط، في ذلك اليوم الأول من تشرين الأول عام 1985. ولا زلت أذكر أن فوزي النمر يومها كان يبكي بكاء مريرا على رفاقه الذين استشهدوا في أرض تونس الخضراء وأمام بحر عكا البعيد القريب، أعني بحر تونس.

كنا نعرف كلنا أن هذه المأساة لم يكن المقصود بها هؤلاء الشباب وإنما كانت رسالة لكل الشعب الفلسطيني.

لقد كنت موجودة في تلك الليلة مع صفوة من الأخوة والمناضلين منهم نمر حماد، سفير فلسطين في روما، والكاتب المعروف ايليا صنبر، سفير فلسطين في اليونسكو، وليلى شهيد، سفيرة فلسطين في فرنسا والشاعر محمود درويش والمناضل عماد شقور ومجموعة كبيرة من المناضلين والسياسيين الفلسطينيين.

كانت لحظات مليئة بالحزن والأسى والغضب، لقد أخذنا فوزي معه إلى عكا.

- احكِ لي يا فوزي عن عكا الحبيبة، الشامخة، الصامدة بصمودكم وتضحياتكم. عكا التي هي مسقط رأسك.

ومضت لحظات صمت ثم انطلق صوت فوزي يحدثني عن والدتي وإنقاذها للجرحى على أثر أحداث عام 1948 وكيف كانت تلملم القتلى والجرحى من الطرقات، وكانت على رأس مجموعة من المتطوعين عندما فتحت مستشفى عكا المغلق وطلبت الأطباء من الصليب الأحمر بعد أن حصلت على إذن من أول حاكم للمدينة، وكيف هرّبت المساجين السياسيين من سجن عكا وأوصلتهم إلى الحدود اللبنانية بسيارة الصليب الأحمر واليونيسيف. لقد بعثت أمامي ذكريات عزيزة جعلت الموجودين كأنهم يعيشون في قصة أسطورية.

ومرت لحظات مثقلة بالذكريات والشجن وهو يروي لنا معاناته مع البحر، وصراعه وهو ورفاقه مع الأمواج الصاخبة في استخراج الأسلحة والمتفجرات. هذه الصورة تذكرك بارنست هيمينجوي برائعته "العجوز والبحر"، وصراعه القدري من أجل البقاء في خضم هذه الأمواج التي كانت تتلاطم على شواطئ عكا، وتضرب عاليا بنصف البحر وتكاد تقذف بهم في أعماق البحر، وكانت الأسلحة توضع في قاع البحر وكنا نشعر كأننا في لحظات حاسمة مع القدر، ولكن علينا أن نحتمي بقاع البحر، وعندما كانت الكشافات المضيئة تبدد ظلام الأمواج كنا نحبس أنفاسنا تحت المياه.

ويتواصل وصف فوزي لنا وهو يتحدث عن الأمواج الغاضبة، والهواء المخيف والطبيعة المجنونة وكيف كانت الأرض تنشق كأن نهاية العالم توشك أن تحل.

كنا نسمع هذه التفاصيل من الحكاية ونحن نحبس أنفاسنا وتذكرت الآن وصفه لامه من سجنه ووداعه للأحباب الذين هاجروا من عكا ويافا عن طريق البحر عام 1948، آلاف من المهاجرين.

وقفزت إلى ذهني تلك الحادثة الدرامية العنيفة لهجرة المناضل صلاح خلف وما حدث لأسرته عندما ركبت البحر من يافا متجهة إلى لبنان، كما ورد ذلك في كتابه "فلسطيني بلا هوية".

إن تراجيديا البحر ترافقني، ولكنها تتجسد بأجلى معانيها وصورها ومواقفها الدرامية المتصاعدة في حياة فوزي النمر ابن عكا الذي عايش كل هذه الأجواء وترك تراثا من الذكريات يدمي القلب والضمير معا، وإن دماء هؤلاء الشهداء من أبناء عكا بمن فيهم عطا الزير ورفاقه وفوزي النمر وأشقاؤه وعشرات المناضلين، جميع هؤلاء تشكل دماؤهم لوحة كأنها قوس قزح وهي ترتسم ناطقة معبرة على أسوار عكا لتبعث فينا الشجاعة والأمل في الغد المشرق.

كان الجو حزينا، مليئا بذكريات الغضب والأسى حيث كانت هذه الجلسة على خلفية ما جرى في الغارة المجرمة التي شنتها الطائرات الإسرائيلية على حمام الشط وتسببت في مصرع أكثر من مائة فلسطيني. ولا عجب في ذلك فالشجو يبعث الشجي، كما يقول الشاعر العربي القديم.

وعندما اهتزت أسلاك الأثير وأمواج الإذاعات والترددات العالمية المختلفة عبر الفضائيات والأقمار الصناعية بنبأ رحيل فارس عكا فوزي أحمد النمر، قفزت إلى ذهني سلسلة من الذكريات فكأنني أنتقل فجأة إلى شواطئ عكا والى قلعتها وقصورها وأجوائها حيث كانت مرحلة هامة في حياتي، ألا وهي مرحلة أيام الطفولة والصبا التي عاشت وتعيش معي طوال أيام العمر.

وقالت الأم

عشت ثمانية وتسعين عاما، قضيت معظمها في قرية الجديدة بعد أن تنقلت طوال حياتي من بلدة إلى أخرى بحثا عن الرزق أو نتيجة مطاردات فرضت عليّ الانتقال من قرية إلى أخرى.

في تاريخ 1969/11/25 اعتقلت الأجهزة الأمنية الإسرائيلية أبنائي الأربعة بتهمة الانتماء لمنظمة فتح وتخطيط وتنفيذ عمليات فدائية.

وتستذكر أم فوزي أنها تعرفت على أبو فوزي في المحطة عندما كانت ذاهبة إلى سوق "سمخ" في قرية الجديدة، كان الناس أيامها على سجيتهم، وكان زوجي من بورين في جبل نابلس وأنا من قرية "نوى" في سوريا، وهو من عائلة غنية ويمتلكون أراض خصبة في فلسطين. وكان اللبنانيون والفلسطينيون يذهبون إليهم ليعملوا عندهم. لقد كانت سوريا غنية ومحطة لكل دول المنطقة وعندما تم زواجي كنت لا أزال في الثالثة عشرة من عمري.

وفي فترة الحرب العالمية الثانية كان عندي أربعة أولاد، وكان زوجي يعمل بسكة الحديد (على الهاتف) وسكنا في حيفا، وتقول إن الأولاد كانوا يذهبون إلى البيوت التي هاجر أصحابها، كانت عكا في عام 1948 قد أغلقت وكان دخولها محرما إلا لمن كان يملك تصريحا. وكانت الحياة صعبة، لا لحم ولا دجاج ولا شغل، وكان ممنوعا على الصيادين أن يذهبوا إلى البحر وكنا نشتري كيلو السكر بليرتين فلسطيني.

كان زوجي يمتلك بعض النقود وكان مدبرا وصار الأولاد يذهبون إلى البيوت ويحضرون ما يستطيعون من الأكل والمتاع، وكان ابني خليل وهو في الرابعة عشر من عمره يذهب لسرقة العصافير والحمام من "كامب الجيش"، وفي عام 1958 هرب إلى لبنان وهو يعيش اليوم في ألمانيا. وتقول أم فوزي: إن اليهود لا يخوفون أحدا، ولا مرة خفت منهم، لقد تسببوا في أن يهرب أهل عكا على لبنان واعتقد سكان عكا أنها فترة

قصيرة حيث سيأكل اليهود الموز والتفاح ويقضون جمعة مشمشية ثم يستفيق العرب وينتصرون ويحررون عكا ويعودون إليها.

كانت عكا فاضية، وكنا نقطع المسافة من بيتنا إلى الميناء دون أن نرى أحدا، جميعهم أغلقوا دورهم وهربوا، ثم أخذوا يتسللون واحدا واحدا ويرجعون لأخذ أمتعتهم وبعض الأكل والفاكهة، وكان اليهود إذا امسكوا بأحد فإنهم يذبحونه. وقد تركنا المنزل الذي كنا نقيم فيه في حيفا وذهبنا إلى مكان أكثر أمنا عند جيراننا وكنا نحن وهؤلاء الجيران الوحيدين في المنطقة لان كل الناس في حيفا وعكا هربت على نابلس أو لبنان (وبقينا لحالنا بالدار).

كان عُمر فوزي في تلك الفترة اثنتي عشرة سنة وكان كثير الغلبة، صادفته مرة وهو يبحش وراء الباب، فقلت له ماذا تعمل؟ فقال: بدي أشتري فرد وأاخبي هون. وعندما كبر فوزي وفتحت الضفة سنة 1968 التحق بحركة فتح وعمل 21 عملية فدائية، وعندما اعتقل كان عمره أربعة وثلاثين عاما وحكم بـ 710 عاما قضى منها أربعة عشر سنة، وأفرج عنه بالتبادل سنة 1982، وكانت آخر مرة أراه فيها عندما كان مريضا في المستشفى بعمان.

صفحة من ذكرياته النضالية

بدأ فوزي بالتفكير الجدي بالالتحاق بحركة فتح، وبدأ بالحديث مع مجموعه من شباب عكا الذين تربطه وإياهم علاقة قويه، ويثق فيهم وبانتمائهم الوطني وباستعدادهم لخوض تلك التجربة وبدأ بالاتصال في قوات العاصفة بنابلس حيث التقى هناك بأحد قادتهم الميدانيين، وعرض عليهم القيام بعمليات داخل الخط الأخضر هو ينتقيها وأفراد المجموعة، وأطلق على المجموعة رقم "778".

وفي بداية شهر كانون لعام 1968 تم الاتفاق على إرسال الأسلحة والتجهيزات العسكرية لأفراد المجموعة عن طريق البحر، وتدرب قائد المجموعة على استعمال تفجير العبوات الناسفة عن طريق توقيتها وربطها بدوائر كهربائية، وقد نفذ عناصر هذه المجموعة سلسله من العمليات العسكرية، وأوقعوا قوات الاحتلال بخسائر كبيرة بالمعدات وما بين قتيل وجريح.

وغطى فوزي تحركاته وعملياته العسكرية وتردده على مدينة نابلس بانتظام باصطحاب أسرته، لعدم لفت الانتباه، بعد أن بدأت المخابرات الإسرائيلية بإرسال الدعوات والتحقيق عن سبب الزيارات المتكررة لنابلس، وكان دائم الاتصال بالقائد الفتحاوي شاكر الذي كان على تواصل دائم مع القائد الشهيد ياسر عرفات وتلقي التعليمات المباشرة منه لأفراد المجموعة 778 والتي قامت بإهداء إحدى عملياتها للشعب المصري المناضل الذي ضحى وتعرض للقتل الإسرائيلي.

وكان فوزي يتنقل بسيارته الخاصة التي تشبه سيارة ضباط المخابرات الإسرائيلية ليغطي على عمله الفدائي، وكان من أهم تلك العمليات العملية التي تم تنفيذها على شاطئ البحر، وقامت بها المجموعة ردا على قصف مدينة اربد الأردنية وقتل أطفال ونساء تلك المدينة، وهي العملية التي أشاد بها صوت العرب وأعلن عنها أكثر من مرة في موطن التشجيع والإعجاب.

في ملفات الثورة الفلسطينية نماذج وبطولات رائعة لا تكاد تصدق أنها من الواقع، فهي نماذج متكاملة من العناصر الفنية النادرة التي تقوم بها شخصيات مثالية لتحدي القدر واختراق آفاق المستحيل وتحقيق آيات من التفوق والسمو.

ولا أخالني أذهب بعيدا وأنا أجسد خفايا وخبايا هذه النماذج التي التقيت بها جميعا وتواصلت معها وعرفتها على المستوى الإنساني، فأنا لا أكتب من آفاق الخيال بعيدا عن الواقع، ولعل شخصية ابن مدينة عكا حيث ولدت وترعرعت وحيث ننتسب كلانا أنا وفوزي نمر إلى مدينة التاريخ لؤلؤة الموانئ ورائعة البحر الأبيض المتوسط عكا التاريخ، عكا التي قهرت أحمد باشا الجزار وقهرت نابليون بونابرت وها هي تتطلع إلى أحفاد ياسر عرفات ليخرج من صخورها وجبالها وشواطئها شبل أو زهرة ترفع علم فلسطين على روابي عكا وعلى صخورها وجبالها.

تكتمل في حياة المناضل الثائر فوزي النمر مجموعة عناصر غير تقليدية، وتجتمع في شخصيته مجموعة من الصفات الرائعة فهو ذلك الشاب الرياضي الممشوق القوام، القوي العضلات، الواسع الصدر الذي تنطلق من عينيه بريق التحدي والرجولة، انه بطل الملاكمة على مستوى فلسطين التاريخية، وهو من أوائل من انضموا إلى حركة النضال، فكان من كوادر فتح الأولى في منتصف عقد الستينيات، أدرك بحسه وثقافته ورؤاه أن طريق النضال هو الطريق الوحيد المكتوب عليه، وأنه لا سبيل إلى تحرير عكا واستعادة فلسطين إلا بقوة الذراع، وقوة العقل وجرأة القلب وروح التضحية والفداء.

عرفت عكا بجميع سهولها وهضابها ومرتفعاتها وصخورها بل وحبات رمالها أي فارس كان فوزي النمر. لقد كان زميلا لأخي جورج في المدرسة، وكنت أشعر بالغبطة والسعادة لهذه الرفقة بين أخي وبين فوزي وهما صبيان يافعان في كشافة المدرسة يرددان الأناشيد الوطنية:

"بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدانِ"

ونشيد بشارة الخوري:

"نحن الشباب لنا الغدُ
ومجده المخلد
لنا العراق والشآم
ومصر والبيت الحرام
مشي على الموت الزؤام
إلى الأمام إلى الأمام
نبني ولا نتكل
نفنى ولا ننخذل
لنا يد والعمل
لنا الغد والأمل"

ولا تزال أصداء هذه الأناشيد ترن في أذني من أبناء الكشافة في عكا وهم يمرون من أمام بيتنا في عكا.. مزيج رائع من أبناء المدينة من مسلمين ومسيحيين.

إنه في الحقيقة مفخرة لمدينة عكا، شخصية تاريخية تجسد البطولة وتشهد أن فلسطين قادرة دائما على إنجاب الأبطال والشخصيات المميزة الفريدة، إنه أنموذج يضاف إلى غسان كنفاني، وإلى أحمد الشقيري وإلى الروائية الفلسطينية سميرة عزام.

وكانت التفاصيل التي يرويها المناضل الأسير المحرر فوزي تبعث فينا الدهشة والإعجاب بما فيها من روح المغامرة وقوة الإرادة، وصلابة الموقف والإصرار على الوصول إلى الهدف، فالغوص في أعماق البحر واستخراج المتفجرات ومن ثم حملها إلى القارب كل ذلك يحتاج إلى قلب جريء والى روح وثابة وشخصية قدت من الذهب الخالص.

إن الجليل بكل مدنها وقراها وبكل شوارعها وحاراتها وبكل شخصياتها وأعلامها ومواطنيها تعرف أي رجل فقدته فلسطين برحيل الفارس المناضل فوزي النمر، فقد أقيمت له العديد من الجنازات الرمزية وخرجت جموع أهالي الجليل تعلن حدادها وحزنها على رحيل بطلها الفارس الذي سجل في صفحات الخلود والشجاعة أمجادا تعرفها وتتغنى بها كل مدن وقرى عكا والجليل.

لقد كان عظيما في حياته، كما كان عظيما في نضاله، وكان رائدا وبطلا وقائدا في معتقله، كيف لا وقد حكم عليه بعشرين مؤبدا بالإضافة إلى خمسة عشر عاما فهو ظاهرة نضالية لا تتكرر ليس في تاريخ الثورة الفلسطينية أو الشرق الأوسط أو دنيا العرب والعروبة والمسلمين بل في العالم بأسره.

شذا البطولة حول أسوار عكا

لا زلت أبحر بقاربي الصغير في لجة بحر الثورة الفلسطينية المتلاطم كأنه المحيط الهادر، سلاحي قلمي المتواضع وإرادة وطموح ورغبتي الصادقة أن استخرج كل لآلئ البطولة والنماذج الإنسانية الرائعة لأعرضها أمام الأجيال، وأنا واثقة أنها ستخلب الألباب، وتبهر العقول، وتؤجج المشاعر، وتحدث في النفوس النشوة والدهشة والإبهار والتعطش إلى البطولة في أسمى معانيها.

وهذه المعاني والقيم الرائعة مصدرها جوهر هذه الشخصيات، فهي نماذج تتلألأ في سماء التاريخ الفلسطيني مشعة بذاتها معبرة عن نفسها، ناطقة بكيانها وجوهرها، ولا فضل لي إلا أنني اقتربت منها فنثرت قطرات من شذا بطولتها.

وهذا المنهج الذي أحرص عليه يتجسد بكل معانيه في شخصية المناضل الثائر الرياضي البطل فوزي النمر.

ولا تزال مشاعر الألم والأسى تعصف بنفسي وأنا أستحضره أمام مخيلتي، كان ملء السمع والبصر ولكنه رحل في مواكب التاريخ والبطولة والمجد.

البطل فوزي النمر شاب طويل عريض، قوي البنيان، واسع الصدر، مفتول العضلات، عريض المنكبين، ثابت الخطوة، يمشي ملكا، وسيما، ملاكم ذو قبضة حديدية جعلته بطلا لوزنه في الملاكمة على كل فلسطين التاريخية وعندما تجتمع شجاعة القلب وجرأة العقل فنحن أمام أنموذج إنساني متكامل، يؤكد المقولة التي نحفظها جميعا الجسم السليم في العقل السليم، ولذلك فان قراراته بالالتحاق بحركة

فتح للنضال من اجل فلسطين تنم عن عقلية ناضجة، ووجدان يقظ ورغبة حقيقية في الانتماء، فهو الرجل القوي الذي يضع كل إمكانياته البدنية والذهنية في سبيل غاية نبيلة، وهي الاشتراك في المقاومة وتنفيذ العمليات الجريئة التي كان يخطط لها الرئيس الراحل ياسر عرفات.

ولا شك أن رصد العمليات العسكرية الفدائية التي قام بها ونفذها، تؤكد كيف كان التناغم رائعا بين الرئيس الراحل ياسر عرفات وبين الرياضي البطل فوزي النمر، هذه الحقيقة الرائعة هي التي تجعلنا نحني هاماتنا إجلالا للرئيس الراحل ياسر عرفات عندما نكتشف عبر هذه الشخصيات التاريخية كيف كان الشهيد أبو عمار يخطط لها ويستقطبها ويدفع بها إلى آفاق النضال الحقيقي ليس بالكلمات والشعارات ولا بالمزاودات، ولا بالمؤتمرات، ولا بالخطب والتصريحات، وإنما من واقع نضالي حقيقي قائم على الرصاص والنار والدم والموت والفداء والتضحية.

نشأ وترعرع في أحضان عكا

لا شك أن مسيرة هذا الفارس تجعله من أروع الأسماء وأحبها إلى قلبي وعقلي، ليس لأنه ابن مدينتي عكا حيث نشأنا وترعرعنا، وليس لأنه أول مناضل أخذ حكما تجاوز مئات السنوات ولكن لان مسيرته تجسد حقيقة المناضل الذي يقول ما يفعل ويفعل ما يقول، وفي مسيرته تتجسد الريادة الحقيقية فهو القائد الذي يقول اتبعوني ولا يقول تقدموا، وهو القائد الذي يتصدى لأعقد وأخطر العمليات العسكرية بحيث تسجل المقاومة الفلسطينية في أرشيفها عمليات مميزة قلما تتكرر على ساحة النضال.

كلانا ينتسب إلى مدينة البحر والخلود عاصمة الموانى ولؤلؤة الشواطئ وموطن الشموخ والكبرياء وميناء فلسطين وموطن التاريخ والبطولة، ومن وحيها استقى أبناء عكا كل ألوان البطولة فهم يأخذون منها العنفوان والقوة والصمود، حيث ترقد على جناح البحر الأبيض المتوسط ولا تكف أمواجها عن عزف قيثارة البطولة والشموخ منذ عهد أحمد باشا الجزار حتى نابليون بونابرت، وحتى عهد فوزي النمر الذي وهب حياته من أجلها مصمما على تحريرها وإعطائها خفقات قلبه وقطرات دمه وذوب أنفاسه.

صورة قريبة للفارس البطل

ولد فوزي النمر يوم 1935/12/31 في مدينة عكا وكان احد أبطال الملاكمة فيها، وقد حصل على بطولة فلسطين التاريخية وكان يعد من القيادات الشبابية المهابة في عكا، وقد التحق مبكرا بصفوف حركة فتح بعد احتلال إسرائيل لكل فلسطين، وقام هو ومجموعته بالعديد من العمليات العسكرية الجريئة والتي هزت دولة إسرائيل، ولكنها لم تعترف بتلك العمليات في تلك الفترة حتى تم اعتقاله.

وقد اعتقلته سلطات الاحتلال الصهيوني يوم 1969/11/25 مع إخوته الأربعة بتهمة الانتماء لمنظمة فتح وتخطيط وتنفيذ عمليات فدائية مختلفة، وهؤلاء الأشقاء هم منصور الذي حكم بسبع سنوات ومصطفى الذي حكم بخمسة عشر عاما وخير الذي حكم بسنتين. كما حكمت المحكمة على المناضل فوزي بالسجن الفعلي لمدة 710 عاما وكان يومها أعلى الأحكام التي حكمت بها المحاكم العسكرية الإسرائيلية.

وعمل فوزي النمر منذ أن تم إطلاق سراحه مع الشهيد القائد الرئيس ياسر عرفات في تونس وكان دائما يكلفه بمهام خاصة.

تزوج المناضل فوزي النمر المناضلة والأسيرة المحررة فاطمة برناوي أول أسيرة لحركة فتح، وقد أحبا بعضهما وقررا الارتباط بحياة مشتركة وكان ذلك عام 1985.

وللمناضل فوزي النمر من زواج سابق ابنة اسمها "أرواح" وولد اسمه نمر، كان دائما يقوم بزيارة والده في غزة وكانت والدته لا تزال على قيد الحياة إضافة إلى إخوته وأخواته وعائلة كبيرة تعيش في مدينة عكا المحتلة.

ومن الذكريات التي تروى عن فوزي النمر أن المناضل أبو علي شاهين صديقه ورفيقه في النضال والأسر عندما زاره في غزة بكى الصديقان لأن فرحة اللقاء كانت أقوى من كل المشاعر.

صفحات من أرشيف البطل

وكان اللواء الفلسطيني فوزي أحمد النمر قائدا لأول مجموعة فدائية في الأراضي المحتلة عام 1948، وقد قامت هذه المجموعة بعدة عمليات عسكرية كان من أهمها تفجير قطار يقل جنودا إسرائيليين، وتفجير ميناء "كيشون"، وتفجير خزانات البترول في حيفا وغيرها من العمليات. وفي فترة اعتقاله تنقل ما بين سجن عكا، والجلمة، والرملة، وفي داخل السجن كان فوزي قائدا يعمل لصالح الأسرى ويدافع عن حقوقهم. ولهذا دلالته النفسية والشخصية لان عالم السجن لا يعرف الاحترام إلا للأقوياء ولا ينصاع السجناء إلا لمن أوتي القوة والصلابة والجرأة وقد كان فوزي قائدا رهيبا مهابا مطاعا في عالم السجون، كما كان قائدا حنونا رحيما مخلصا في عالم النضال ودنيا الناس.

وفي عام 1982 حرر فوزي النمر من معتقله في إطار صفقة تحرير الأسرى، وكان عدد المعتقلين (4.700) معتقلا فلسطينيا ولبنانيا من بينهم خمسة وستون معتقلا لبنانيا وذلك مقابل إطلاق سراح ستة جنود إسرائيليين من قوات "الناحال" الخاصة الذين تم أسرهم في منطقة بحمدون في لبنان من قبل منظمة التحرير الفلسطينية حركة فتح بتاريخ 1982/9/4.

وجاء في كتاب الأوائل على درب فلسطين أن فاطمة تزوجت من فوزي بعد إطلاق سراحه وسراحها عام 1978 حيث التقت فاطمة بستة مناضلين في السفارة الفلسطينية في الجزائر، وكان بينهم فوزي النمر فسألوا عن تلك الفتاة السمراء واقتربوا منها فبادر أحدهم بسؤالها من أنتِ، فأجابت أنا فاطمة البرناوي، فمن أنتم. فأجاب احدهم: نحن مجموعة 778، ثم تقدم فوزي وقبلها في جبينها، وبعدها بقيت فاطمة في المعسكر في الجزائر إلى أن طلب فوزي في أحد الأيام الزواج منها فرفضت أولا، فلما ألح عليها بالطلب استجابت، وهكذا وقع النصيب وتزوجا وعاشا بعد عودة السلطة الفلسطينية في غزة. وقد تم تعيينها من قبل الرئيس عرفات مديرا عاما للشرطة النسائية في فلسطين حيث قامت بتأسيسها ورئاستها، وهي على درجة لواء.

فوزي النمر والقائد أبو عمار

وتقديرا لتاريخ فوزي النمر النضالي ومجموعته، فقد أوكل إليه الرئيس الشهيد ياسر عرفات في حينه مهمة رئاسة لجنة التواصل بين فلسطينيي الداخل والشتات والتي كان مقرها مكتب الرئيس في غزة.

ولم تسمح سلطات الاحتلال لفوزي النمر بزيارة الضفة الغربية كما لم تسمح له بزيارة الأراضي المحتلة عام 1948 وفرضت عليه الإقامة في قطاع غزة المحاصر، والذي رفض الفقيد مغادرته مهما كانت الأسباب.

وكما كتب الأديب المصري المبدع صالح مرسي روايته الرائعة رأفت الهجان فقد أوحت حياة فوزي النمر للكاتب الفلسطيني توفيق فياض أن يكتب عنه رواية بعنوان "قصة مجموعة عكا" وروى فيها تجربته النضالية وقصة العمليات الجريئة التي قام فيها داخل فلسطين التاريخية بأعمال بطولية.

ويعد المناضل فوزي النمر قدوة في النضال وهو قائد تاريخي ملتزم بالمبادئ وقد عرف عنه ذلك كل من عمل معه. وللحقيقة فهو أبرز (القبضيات) في عكا وكانت له صولات وجولات في مقارعة الاحتلال الإسرائيلي، وفي فرض هيبة السجناء والحركة الوطنية والمعتقلين على كل من كانوا في داخل السجن.

افتح يا سمسم

وكانت المجموعة التي يقودها "أبو النمر" تحمل اسما حركيا هو المجموعة "778" وكانت القيادة العامة لقوات العاصفة تصدر لها الأوامر من خلال أثير إذاعتنا "صوت العاصفة" في نهاية الستينيات، من خلال رسالة مشفرة تذاع على الهواء بين وقت وآخر، رسالة تقول : "من ألف قاف إلى 778، افتح يا سمسم" ولم يكن سمسم بطبيعة الحال هو ذلك الجني في حكاية علاء الدين والأربعين حرامي التي تنتمي إلى حكايات الخيال، بل هو اسم شاطئ قديم مهجور على بحر حيفا، يرسو عليه بين وقت وآخر قارب صيد قديم يقوده البحار المخضرم قاسم أبو خضرة ابن مدينة عكا، حيث يفرغ حمولته من السلاح بين وقت وآخر على ذلك الشاطئ، فيأتي بقية أفراد المجموعة، ومن بينهم فوزي نمر، ويأخذون ذلك السلاح لاستخدامه في عملياتهم النوعية في ذلك الزمن، زمن الكفاح المسلح المليء بالبطولات والحكايات المدهشة.

وإذن، فهذا هو فوزي نمر بطل رواية المجموعة 778، وبطل الرسالة المشفرة افتح يا سمسم التي كنا نذيعها من إذاعة صوت العاصفة دون أن نعرف أسرارها الحية.

نخبة من المناضلين الثوار

كان فوزي النمر في تلك الفترة يقود مجموعة من الثوار الحقيقيين، وكانت الثورة تلتهب في صدورهم وضمائرهم وكان كل شيء بالنسبة لهم واضحا وضوح الشمس، صادقا ونبيلا، فقد كان المناضلون يحرصون على إخفاء بطولاتهم من أجل استمرار العطاء للثورة كما كانوا يتناثرون على ضفاف الأنهار وفي سفوح الجبال وفي قممها الثلجية، يتخاصمون للحظات بسبب المنافسة على أيهم يذهب لتنفيذ العملية أولا. وحين كان فوزي النمر، ومحمد حسن الهيب، وقاسم أبو خضرة وأمثالهم من أوائل المناضلين داخل الخط الأخضر يعلنون بصمت صاخب وحدة الشعب الفلسطيني، ووحدة القضية الفلسطينية، ووحدة النضال الفلسطيني فيغادرون حياتهم المستقرة، ومعاشهم المضمون، ومستقبلهم الممتد أمامهم ليصبحوا فدائيين في حركة فتح، ينطقون الكلمة بحذر وإجلال على اعتبار أنها أحد أسرارهم المقدسة، وعلى اعتبار أنها المكون الرئيسي لملامحهم الحقيقية.

لحظات مشرقة بأنوار الله

ما أروع تلك الأيام المفعمة بالأشواق الغامضة، والمشاعر النبيلة، والتضحيات السامية، والصعوبات المشرقة بأنوار الله، ما أجمل تلك اللحظات التي كان يعيشها الأبطال وهم يواجهون اختبارات متلاحقة في

كل يوم اختبار وفي كل لحظة مواجهة حيث يتوجب على الفدائي الفلسطيني أن ينجح في هذا الاختبار. انه هو نفسه صانع حدي التجربة (الاختيار والثمن) وهو نفسه من تلقاء ذاته يذهب هناك ولحظات عمره بين يديه تتحول كلها إلى كتمان وترقب، ولكنه يجتاز تلك الصعوبات من لحظة إلى أخرى ويشعر بسعادة غامرة وبشارة مثيرة ويشعر بحلاوة لا يضاهيها عسل الجبال العالية.

يا فوزي النمر أيها الشهيد الذي حصلت على أسمى المراتب وأعظم آيات الاحترام والتقدير، يا صاحب البطولة الرائعة في تلك الرواية الخالدة التي كتبها الأديب الفلسطيني الكبير توفيق فياض والتي تؤرخ وتجسد كل تفاصيل تلك الملحمة الرائعة من بطولاتك.

لقد قُدر لك أن ترى بعينيك الحلم الفلسطيني وهو يبدأ في أرض الواقع.. أيها الفدائي أنت علامة من علامات ثورتنا وجزء من ذاكرتنا الوطنية التي لن تسقط أبدا في النسيان.

إجلالاً للبطولة في مواكب التاريخ

يقول منير منصور إن فوزي النمر ساهم وهو في الأسر بتشكيل الحالة التنظيمية للأسرى وأنه كان يتمتع ببنية قوية وبشخصية تمتاز بكاريزما كبيرة، وترأس في الستينيات فرقة شباب كانت مهمتها حماية عكا العربية من اعتداءات اليهود مما زاد في شعبيته ومحبة الناس له.

وأتاحت زيارات فلسطيني الداخل للأرض المحتلة عام 1967 الفرصة أمام فوزي النمر للتواصل مع أسرته وذويه الذين قدموا لغزة من الداخل لان إسرائيل حظرت عودته للداخل ولو ليوم واحد.

ويقول شقيقه خير عن فترة اعتقالهم: لقد تكبدت العائلة بعدما اعتقل فوزي بالمؤبد وحكم على أشقائه الثلاثة مصطفى ومنصور وخير بالسجن لفترات متفاوتة، آلاما وأحزانا كبيرة، كما أن صهره يوسف أبو الخير اعتقل بتهمة التعاون مع خلية محظورة.

ويستذكر خير أن والدته كانت لا تقوى على النوم في الليالي، وتظل باكية على بكرها المحكوم بالمؤبد والمبعد لاحقا وكانت حسرة الأم على ولدها تكوينا نحن أيضا، فيفر النوم من عيوننا معظم ساعات الليل.

ويثمن نجل الراحل مهندس الحاسوب نمر فوزي النمر المقيم في عكا زيارة عشرات الوفود من الداخل والضفة الغربية وهضبة الجولان السوري المحتل لبيت العزاء في مسجد الجزار، ويقول المهندس الشاب انه كان يلتقي والده في غزة كلما سمحت الفرصة، وكثيرا ما كان يلتقيه في مصر أو الأردن وسط معاناة مؤلمة لان سلطات الاحتلال كانت تحاول بدوافع الانتقام منعه من دخول غزة حيث الحواجز في بيت حانون بعد سفر ثلاث ساعات من عكا.

ويقول: لقد احتضنته بحرارة قبل ثمانية أشهر وكان ذلك اللقاء مثيرا محطما لكل خلايا أعصابي ونفسيتي، فقد كان بين ذراعي ولكنه لا يرى ولا يسمع بفعل مضاعفات المرض. وكان كل ما يتمناه أن تتاح له زيارة عكا لآخر مرة في حياته واحتضان والدته وقضاء ولو ساعات قليلة في مدينة الروح والقلب والحياة ولكن إسرائيل رفضت بشدة كما اعتادت في حالات مشابهة كثيرة رغم تدخل منظمات حقوقية عديدة.

وتقول أم فوزي بعد أن كفكفت دموعها أنها تدعو لنجلها الراحل بالجنة، وتستذكر أن رجال المخابرات أثناء تحقيقهم معها في "أنصاص الليالي" وهم يحاولون النيل من معنوياتي، لكنني كنت أقول لهم الحبس للرجال.

وتستذكر بفخر عندما خاطب ابنها فوزي القاضي في المحكمة العسكرية وقال له:

- أنت من أي بلاد قدمت لفلسطين؟.. هذه بلادي ومن واجبي الدفاع عنها.

لقد كان الشهيد الأسير المحرر سفيرا لشعبنا للحرية والنضال، وكم كان تواقا لان يعود إلى بلده ولكنه لو قدر له أن يشهد مواكب التكريم والإجلال التي جاءت لوداعه، وهذه الحشود الجماهيرية الرائعة من كل أنحاء فلسطين في الضفة وغزة والجليل والجولان لو أنه ألقى نظرة على أبناء شعبه وحبهم له وتقديرهم وإجلالهم لبطولته لعرف أن نظرة واحدة على جماهير هذا الشعب الرائع تساوي العمر كله، ومن المؤكد انه سيمضي إلى جنان الخلد ناعم البال مستريح الضمير فقد أدى رسالة الشهداء والأنبياء في أروع وأجل معانيها.

وستبقى أيها الفارس المناضل رمزا لعروبة عكا، ومهما مرت عليها من الأحداث وتعاقبت عليها من الكوارث ستبقى أنت وعكا رمزان للتاريخ والخلود والعروبة.

(2013/5/3)

فؤاد الشوبكي

دق أبواب السبعين وجاوزها شيخاً مناضلاً صلباً صامداً صابراً
وقائد عسكري ومصلح اجتماعي وعلم خفاق من أعلام الثورة.
كان عقلية عسكرية مالية فذة، بدهائه وحكمته وتناغمه مع الرئيس عرفات
وفرّ الرصاصة والرغيف وضبط إيقاع "القرش" كما ضبط إيقاع البندقية.
في حي الدرج بغزة هاشم تشرّب الرجولة والكفاح والانتماء
وانضم إلى خليل وصلاح وياسر في مدرجات الجامعة وفي خنادق المعركة.
تحمل كل ألوان القهر والتعذيب ولكنه رفض أن يعترف بأن الرئيس وراء شحنة الأسلحة في السفينة "كارين ايه" لأن الرجل الحقيقي يموت وسره في صدره ولا يتعرف على رفيقه.

جميل أن نسجل تاريخ ثورتنا بالشعر والإلحان والأنغام واللوحات والخيال والأفلام، وجميل أن نبذل كل جهد للإدلاء بشهادة موثقة عن تلك المرحلة من البطولة والفداء وان نضيف ولو سطرا واحدا كل يوم نُعلي فيه من قدر البطولة والأبطال.

والتاريخ لمن يكتبه، ليس لمن يصنعه فقط، بل لمن يكتبه، ويحوله إلى وثائق حقيقية، كشاهد حي ناطق على الأحداث والمتغيرات.

واللواء فؤاد الشوبكي شخصية مناضل حقيقي، تلتقي فيه كل أبعاد عناصر الأسطورة، والشجاعة، والفداء، والمصير القدري كأنه أحد أبطال الأساطير الإغريقية المحكومة بالموت.

إنه أحد فرسان ذلك الزمن الجميل، الذي آمن بان الحياة موقف، وان هناك طريق واحد للتحرير هو النضال الحقيقي، فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدا.

دفع اللواء فؤاد الشوبكي فواتير كاملة من أجل الحرية، ومن أجل رفع علم فلسطين خفاقا لم يتردد

ولم يتقاعس

ولم يساوم

ولم يسوف

كان ولا يزال رائدا من الصفوة

وإن قضية السفينة المحملة بالأسلحة ليست سوى صورة للبطولة تحسب في رصيد ياسر عرفات كما تحسب في رصيد أبو حازم، واني أستذكر هنا أن الرئيس جمال عبد الناصر كان يرسل السفن محملة بالأسلحة إلى الثورة الجزائرية، وكان هذا العمل البطولي الرائد يحسب لقائد القومية العربية ومحرر الأمة العربية.

كان فؤاد من جيل الشباب الجامعي المثقف الثائر، الذي فهم الحياة على حقيقتها، وهي أن ضريبة الدم يدفعها عن طيب خاطر كل مواطن مثقف نبيل مخلص، وكل من يؤمن بان الثورات يجب أن يصنعها الفقراء، ويجب أن لا يسرقها المرتزقة، لقد كان يؤمن بما كان يقوله شوقي:

"وللأوطان في دم كل حرٍ

يد سلفت ودين مستحقُ"

إن الجندي الذي يستشهد وهو رابض خلف رشاشه في خندق المعركة، يمضي إلى سبيل ربه شهيدا محفوفا بكل آيات التبجيل والتكريم. حتى عدوه وخصمه يحني له هامته إجلالا وتقديرا. ولكن الشاب اليافع الذي يحمل في يمينه كتابه وفي يساره سلاحه، ويتعلم ويقاتل وهو في مطلع حياته وصباه الغض لم يتجاوز العشرينيات من عمره؛ هذا النوع نادر من البشر يستحق منا كأفراد وكأمة أن نحني له هاماتنا إجلالا وتقديرا، وأن نرصده في سماء البطولة نجما ومنارة وقدوة.

وأقول بصدق إن هذه النماذج الرائعة النادرة هي التي تخفف عن شعبنا وقع النكبات وتبدد من حولنا سحب الظلمات، وتطلق في سماء فلسطين.. سهولها وجبالها، هضابها وهادها، حقولها وبيادرها، وأسراب طيور الحرية البيضاء المشرقة بالأمل والعطاء. تلك الصفوة الرائعة من أبناء فلسطين بسيرتهم العطرة، ونبل أخلاقهم، وروعة انتمائهم، وشذا بطولتهم، نقف أمام مسيرتهم نتأمل ونقرأ ونتحاور ونتواصل فنشعر أن على هذه الأرض ما يستحق الحياة.

أين كنا كيف أصبحنا وكيف؟

على أثر الغارات التي ضربت دمشق في الأسبوع الماضي استعرضت قناة "دريم" الفضائية صور جمال عبد الناصر ومحمد نجيب وأنور السادات وبعض المشاهد من حرب عام 1956 صورا بالأبيض والأسود ولكنها ناطقة، كأنها تقول هؤلاء الأبطال لم يقبلوا يوما أن تضرب بورسعيد، ولم يقبلوا في عام 1967 أن تكون الشام هدفا للعدوان، رفض هؤلاء القادة العرب أن يقتل أبناء الشعب السوري وان تعربد في سماء دمشق الفيحاء أسراب طائرات البغي والعدوان.

هؤلاء الصفوة كتبوا في التاريخ صفحات خالدة، قاتلوا وماتوا واقفين، وأكدوا بالعمل والدم والاستبسال أنه لا يجوز أن نمضي في الحياة أو أن نزف إلى الموت دون أن يكون الواحد منا ندا لعدوه على نحو ما كان يقول غسان كنفاني.

وهنا أستذكر مقوله الشاعر العربي العظيم أبو الطيب المتنبي:

"فإذا لم يكن من الموت بُدّ فمن العار أن تموت جبانا"

هؤلاء الصفوة أقدم لهم عبر هذه الأنهار القليلة من الصفحات باقة ورد من بستان بطولتهم، من حديقة هم الذين رووها بدمائهم الزكية وأنبتوها على سفوح جرزيم وعيبال وعبر سهول الكرمل وفوق أمواج بحر عكا ويافا وحيفا.

هؤلاء هم الذين يجففون دموعنا ويمسحون آلامنا ويبعثون الأمل في حياتنا ويضيئون شموعا مقدسة في ليل واقعنا الأليم. نتوقف طويلا معهم وأشارك وبشارك شعبنا في التواصل مع لحظات خالدة من مواقفهم أستمد منهم وتستمدون العزيمة والصبر والشجاعة والإيمان.

وأستذكر منهم الشهيد ياسر عرفات، والرئيس محمود عباس، وهاني الحسن، وهايل عبد الحميد، ومروان البرغوثي، وجورج حبش، وأحمد الجعبري، وسعد صايل، وخليل الوزير، وفوزي النمر، وأحمد سعادات، وعزمي الشعيبي، وكامل جبيل، وعبد الجواد صالح وغيرهم.

واليوم نقف إجلالا واحتراما واعترافا لفارس من هذه الصفوة.. اللواء فؤاد حجازي محمد الشوبكي.

صداقة المبدأ والبندقية

من المقولات المعروفة ذات الدلالة قل لي من هم أصدقاؤك، أقول لك من أنتَ.

والشاعر العربي القديم يقول:

"اختر قرينك واصطفيه تفاخرا إن القرين إلى المقارن يُقرن"

ويشهد الكثيرون ممن عرفوا فؤاد الشوبكي أنه كان من أقرب الشخصيات الوطنية الفلسطينية للشهيد ياسر عرفات، كما أن الرئيس محمود عباس (أبو مازن) يحمل ودا صادقا صافيا لكل أسرى الوطن وجميعنا نعرف مدى مصداقية القائد ومدى حرارة وإخلاص كلماته عندما يجعل قضية الأسرى في سلم أولوياته، وأنا أعلم علم صادقا أنه يكن لفؤاد الشوبكي ولأسرته كل حب واحترام، ولا يترك مناسبة إلا ويترجم سلوكه هذا إلى تصرفات وأفعال في شتى المناسبات الإنسانية والاجتماعية، فهو يرعى أولاد فؤاد رعايته لأبنائه وأحفاده، ولعل في ذلك ما يمحو بعض ما في نفس الأخ فؤاد من المرارة والإحساس بالنكران.

أضواء على شخصيته وأخلاقه

أجمع كل من عرفه على أنه رجل متواضع بسيط كريم، لا يحب المظاهر الكذابة، ولا يؤمن بلغة البروتوكولات، كان رجلا عمليا، يسخر أغلب وقته لخدمة أبناء شعبه، انه رجل إصلاح قدير، وثائر شجاع ومحارب لا يهاب الموت، جندي ملتزم من أجل فلسطين، فقد اعتقلته السلطات الإسرائيلية منذ العام 2006 وذلك عندما قام باستيراد سفينة أسلحة لمناطق السلطة الفلسطينية بتعليمات مباشرة من الرئيس عرفات.

ورغم العذاب والألم والهوان فإن السلطات التي كانت تحقق معه، لم تجعله ينبس ببنت شفه ولم يعترف بصورة من الصور على أن الرئيس الراحل كانت له يد في عملية السفينة "كارين ايه" . هذا العمل البطولي المشرف، لا يقدر عليه إلا الرجال المخلصون، الأوفياء لتراب أرضهم ووطنهم فلسطين.

ومضات البطولة في حياة فؤاد الشوبكي كثيرة والدروس التي علمها للأجيال ستبقى خالدة، تهدي النور والرشاد والقدوة إلى كل أحفاده وأبناء وطنه على مر السنين.

ومن ملف ذكرياته يروي عدلي صادق أن الرئيس عرفات كلفه بالسفر مع فؤاد الشوبكي إلى استراليا، طالت الرحلة إلى أربعين يوما بلياليها، وللأمانة والإنصاف رأيت صاحبي رجلا بلا أية متطلبات أو نزعات من تلك التي يغترف منها المسرفون على أنفسهم، فقد شاهدته غارقا كل الوقت في هموم عمله، وما كلف به، ومتوترا لأن عين القائد عليه، يتابع مهمته يوما بيوم وينتظر النتائج.

لم نذهب للنزهة وترددنا على مسجد المدينة، وأشهد أن الشوبكي كان من الأشخاص المناضلين الذين عاشوا سنوات خدمتهم في الثورة مستنفرين على حساب حياتهم الأسرية، كان من ذلك الطراز النادر على صعيد الجاهزية والانقطاع للعمل، فقد ظلت "المالية" حاضرة باستمرار في المقدمة، وفي محاذاة الخندق الأول فهي التي تعتبر (بنزين) الحركة العامة للقوات، وهي جلابة الطعام والأغطية والخيام والوقود.

قضية الشوبكي من وجهة نظر العدالة الفلسطينية

وقد أثارت محاكمة فؤاد الشوبكي جميع الرأي العام الفلسطيني، وتجند للدفاع عنه نخبة من أكفأ المحامين وهم الدكتور حسين الشيوخي، والياس صبّاغ، وأفيغدور فيلدمان، وإيتامار مان.

ويقول المحامي الدكتور حسين الشيوخي ملقيا الضوء على محاكمة الشوبكي: إنها مثال للمحاكمة السياسية من حيث إنها محاولة لمحاكمة التاريخ، والنضال الوطني الفلسطيني وعلاقات الرئيس الفلسطيني الراحل الشهيد ياسر عرفات، وأؤكد أن السلطات الإسرائيلية ارتكبت عدة مخالفات جسيمة للقانون الدولي بمحاكمتها للواء فؤاد الشوبكي، فاختطاف الشوبكي وسعدات ورفاقه من سجن أريحا، ونقلهم لسجون داخل إسرائيل يشكل انتهاكا للمادة 49 من اتفاقية جنيف الرابعة، التي تحظر النقل الجبري للجماعات أو الأفراد من المناطق المحتلة إلى أماكن أو سجون داخل دولة الاحتلال، كما أن الأعراف القانونية تحظر محاكمة أي متهم مرتين على ذات التهمة، وقد مثل اللواء الشوبكي أمام المحاكم الفلسطينية وصدر قرار بتبرئته والإفراج عنه من أعلى سلطة قضائية فلسطينية وهي محكمة العدل العليا، فضلا عن خرق إسرائيل لالتزاماتها في اتفاق إعلان المبادئ الموقع في الثالث عشر من أيلول عام 1993 وبخاصة للبنود والمواد المتعلقة بالصلاحيات القضائية للسلطة الفلسطينية، كما أن دولة الاحتلال خرقت الاتفاق الرباعي الذي أبرم مع السلطة الفلسطينية وبمشاركة الولايات المتحدة وبريطانيا حول نقل اللواء الشوبكي وسعدات إلى سجن أريحا، علاوة على خرقها لقرار مجلس الأمن الدولي رقم 1435، الذي أناط بالسلطة الوطنية الفلسطينية محاكمة المحتجزين في سجن أريحا، والمحاكمة العسكرية الإسرائيلية تظهر عدم اكتراث الكيان الإسرائيلي باتفاقيات جنيف وعدم احترامها للمواثيق الدولية لحقوق الإنسان.

وعلى الرغم من كل هذه الخروقات والانتهاكات أعرب الدكتور الشيوخي عن ثقته بموقف موكله، داعيا إلى مزيد من الضغط السياسي والجماهيري على الإحتلال لإقفال ملف هذه القضية المفبركة وتأمين الإفراج عن اللواء فؤاد الشوبكي، وأهاب بالقيادة الفلسطينية مخاطبة الولايات المتحدة وبريطانيا ودعوتهما للتدخل للإفراج عن الشوبكي وعن المختطفين من سجن أريحا كافة.

رجل المهام الصعبة

ولد فؤاد الشوبكي في مدينة غزة عام 1940، وأكمل دراسته الثانوية فيها، ثم غادر إلى جمهورية مصر العربية لإكمال دراسته الجامعية، ومن هناك التحق بصفوف الثورة الفلسطينية مناضلا في حركة فتح في بدايتها، إنها نفس الخطوات التي سار عليها ياسر عرفات وصلاح خلف وخليل الوزير الذين تفتح وعيهم الثوري ونضج وجدانهم القومي في فجر الستينيات في جامعات جمال عبد الناصر.

لقد شارك فؤاد في جميع معارك الدفاع عن الثورة والهوية والقرار الفلسطيني المستقل، وكان دائما مؤسسة عسكرية مالية ووطنية فدائية، حيث قام بتأمين الذخائر والأسلحة بإيصالها إلى بيروت في الظروف الصعبة لرفع معنويات المقاتلين، وقد رصد مدخرات جيدة للقوات الفلسطينية في الدول العربية لمتابعة قضايا العائلات وحل مشاكلها.

في عام 1994 وبعد توقيع اتفاقية أوسلو أشرف على عودة المقاتلين من أماكن تواجدهم إلى الوطن، بعد أن حل كافة المشاكل التي واجهت العديد منهم، وعند عودته إلى الوطن ساهم في حل مشاكلهم المالية، واستطاع أن يتغلب على الأزمة المالية التي عصفت بالثورة عام 1992 قبل العودة إلى الوطن. وقد نفذ بعقلانية وكفاءة جميع المهام التي أوكلت إليه في حركة فتح والثورة الفلسطينية.

أياديه على الصعيد الاجتماعي

كان أبو حازم شخصية قيادية وجيهة، لها احترامها وحضورها، وكان جميع أبناء فلسطين لا يكسرون له كلمة، ويطمئنون إلى أحكامه ويسعون إليه في المآسي والمشاكل الكبيرة والمتعلقة بالثأر والدم، كان حكمه دائما موضع احترام وتقدير، وكان القضاء العشائري بالنسبة له وسيلة لكسب القلوب وحماية الأمن الاجتماعي لأبناء فلسطين. وقد تم اختياره رئيسا للاتحاد الفلسطيني للفروسية، ورئيسا لنادي الدرج الرياضي، ونادي التفاح الرياضي، وقد حصل على الدكتوراه الفخرية في الإدارة المالية من جامعة "العالم" الأمريكية، وما أن عاد إلى الوطن حتى تولى مسؤولية الإدارة المالية العسكرية عام 1995، وعمل بشكل مباشر إلى قرب الرئيس عرفات وساهم في إنشاء لجان الإصلاح وتعزيز السلم الأهلي في المجتمع الفلسطيني، وكان "ديوانه" أحد محطات الإصلاح لحل قضايا الدم بين الحمائل الفلسطينية.

في موكب الأشجان

منذ أسابيع قليلة رحلت أم حازم رفيقة عمره، وأنيسة حياته، والشمعة التي أضاءت تاريخ حياته كلها، ورافقته في كل مراحل حياته، وذاقت الألم والحسرة وهي تتطلع إلى والد أبنائها الذي غيبته السجون وحالت بيته وبين أبنائه الشباب، الذين تربوا بعيدا عن والدهم، كانت أم حازم كتلة من المشاعر والعواطف الجياشة المعبرة عن وطنية صادقة وولاء حقيقي لرفيق عمرها، فخورة بمسيرته، شامخة ببطولاته، مدركة قدراته الرائعة على تحدي الموت، والمضي في سبيل الهدف وهو يحمل رشاشه على كتفه وروحه على راحته.

لقد افتقد أبو حازم هذه الزوجة الصالحة افتقد رفيقة حياته التي خطت بأناملها وتوجهاتها أروع صفحات الوفاء، وكان أكثر ما يؤلمه وينال من عزيمته، ويبعث الشجن في صدره، وتكاد دموع الكبرياء أن

تلمع في مآقي عينيه ولكنه يصونها بكبرياء الرجال، شعوره بأنها تمضي دون أن يهديها نظرة وداع، وضاعف من حزنه وألمه أن السجان منعه من أن يشترك في وداعها وكأنهم يتناسون أنهم أمام بطل ورمز ثوري، ورجل يجسد كل معاني المروءة والشمم والكبرياء، وما أدركوا أن في قانونهم يسمح للمجرم الجاني بأن يلقي نظرة وداع على أمه، أو فلذة كبده، أو أحد أقاربه من الدرجة الأولى. ما أشد هذه المفارقة يمنع البطل الشهم من إلقاء نظرة وداع على رفيقة حياته وهي تنتقل إلى باريها؛ ويسمح بذلك الحق للمجرم.

من أعماق قلبي خواطر وأشجان

أخي فؤاد..

لعل أروع ما في مسيرتك هذا الخلق النبيل الذي يميزك، والذي عرفتك به، فأنت دائما جاد ومبتسم، قريب إلى القلب، مخلص في عملك، متفائل، محب للخير، حليما، قادرا على أن تكظم غيظك، مؤمنا بقوله تعالى {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما}.

هذه الكاريزما الإنسانية الرائعة هي التي جعلت الرئيس الرمز يقرّبك إليه ويعتبرك ساعده الأيمن، كيف لا وأن تعاملاتك المادية وخبراتك وبُعد نظرك، ونظافة يدك جعلت الرئيس وجميع القادة والأبطال والرفاق الذين حوله في كل في موقعه يكن لك الحب والتقدير لأن من كان في نزاهتك وأمانتك يكون سلوكه مصداقا لما قاله كسرى في عمر بن الخطاب عندما رآه نائما فقال: حكمتَ فعدلتَ فأمنتَ فنمتَ. وأنت أخي فؤاد أجمعت القلوب على حبك واحترامك لنزاهتك وموضوعيتك خاصة، وأن المال فتان وأن إرضاء الناس غاية لا تدرك، ولكنك كنت قادرا على كسر هذه المعادلة، فأجمع كل من عرفك على شجاعتك وبعد نظرك ونزاهتك.

أخي فؤاد..

كلما أتصورك وراء الأسوار قابعا في أعماق الزنازين يحاصرك الجلاد، وتشتد عليك وطأة المرض وتنال من عزيمتك وإرادتك القوية أهدي إليك بعض خفقات قلبي وبعض كلمات قلمي، فأنا أؤمن أننا أمام الذين حاربوا وقاتلوا وانتصروا لا نملك أمام محنتهم إلا الدموع والكلمات.

(2013/5/10)

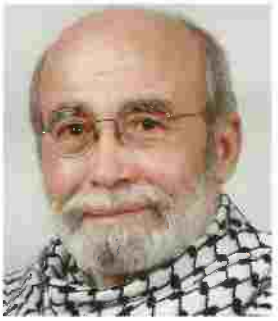

عبد العزيز علي شاهين

كان مدرسة في فن الحياة والثورية والبساطة والجرأة التي لا تحسب للموت حساباً أكثر من ناكف عرفات وأكثر من أحبهم عرفات.

بُعيد هزيمة حزيران عام 1967 عبر عرفات باثنين وسبعين رجلا الحدود وأقام قيادته في قلب القدس وكان أبو علي شاهين واحداً منهم.

الثائر الذي أفنى عمره في حب "فتح" يقوم وينام على حبها فلا يتزحزح عن هدفه.

هاتفه الرئيس أبو مازن، وزاره رئيس الوزراء إسماعيل هنية فكان أبو علي شاهين صلة توافق وحب وإجماع ووحدة حتى وهو في أشد اللحظات محنة.

*** ابن بشيت- الرملة أمضى خمسة عشر عاما في السجون الإسرائيلية. منها 12 عاما في العزل الانفرادي، تبهجه محبة الناس ووفاء الجماهير، وكان مناضلاً وقائداً ومفكراً وكاتباً وصاحب رسالة ورائداً ثورياً وإنسانياً وطنياً.**

*** كان يجيد الألمانية والانجليزية والفرنسية والعبرية وكان موسوعة في التاريخ والسياسة والحكم والحركات النضالية وكان قادرا على أن يبهر ويفحم كل من يناظره حتى لو كانوا من القادة الإسرائيليين.**

اليوم الخميس 16 أيار 2013

الساعة السابعة مساء

كنت من دبي على خط الهاتف مع المناضل الكبير أبو علي شاهين، في بيته في غزة.

جاءني صوته من بعيد.. خافتا في بادئ الأمر.. ولكنه ما لبث أن أصبح واضحا مسموعا.. المكالمة كانت مشحونة بلحظات من التوتر واللهفة والاضطراب.. إنه أبو علي شاهين القائد التاريخي.. الذي أعرف حجمه، وتاريخه، ونضاله، ومسيرته.. وبصعوبة تمالكت نفسي، وسيطرت على مشاعري، وهاجمتني موجات من الاضطراب والانفعال، ووجدتني أغرق في أحزاني وذهولي وأحاسيسي.. تفر مني الكلمات، وأفقد القدرة على التعبير، وأقاوم بكبرياء وإصرار، أطيافا من الدموع.. تكاد تئد الكلمات فوق لساني..

- سلامتك يا أبو علي، سلامتك يا أعز الناس، سلامتك أيها القائد الكبير، أيها الزعيم، أيها المعلم، أيها المربي، أيها الثائر، يا من علمتنا ورعيتنا ووجهتنا وغرست في نفوسنا، وصدورنا، ووجداننا، مبادئ الثورة، والكفاح والالتزام.

وجاء صوته، كعادته، محملا بالود والمحبة والنبل والتواصل الإنساني:

- سيدتي أنتِ الأميرة..

وغلبتني موجة من الأسى والحزن وبادرته:

- كيف أنت..؟ ما هي أخبارك..؟ أنتَ كنت قائدنا وزعيمنا وحبيبنا.. ثق أنك بخير.. وستكون دائما.. لأنك كما عرفناك قادر على أن تصارع الزمن.. وتتغلب على أشرس الأعداء وتنتصر، أنتَ قائدنا وزعيمنا ورائدنا..

وبصعوبة التقط بعض كلماته.. همس بوضوح:

- لقد اتصل بي أمس الرئيس أبو مازن هاتفيا.. تمنى لي الشفاء.. وقال إنها وعكة وستمضي، وستكون الأخيرة بإذن الله. شكرته.. شكرا يا سيادة الرئيس.. وأغلقت السماعة.

وقد شعرت في هذه اللحظة بمدى إنسانية ونبل وسمو أخلاق السيد الرئيس محمود عباس، خاصة وأني كنت أعلم بعمق الخلاف والتوتر بين الرجلين، ولكن الرجال الحقيقيين تعرفهم في لحظات المحن. ولا شك أن اتصال الرئيس بأبو علي شاهين في هذه اللحظات يحمل رسالة الإنسان الكبير الذي يسمو فوق كل الجراح وكل الخلافات وكل التفاصيل الصغيرة.

حاولنا أن نتواصل معه لمدة أطول، ولكن ابنه أيمن أخبرنا، انه في حالة إعياء شديدة.

سألته عن الأخت أم علي زوجته، التي تعتبر المناضلة الصابرة التي تحملت أعباء الحياة وربت أبناءه وتعهدتهم طوال سنوات أسره الطويل، وكانت ترعى الأسرة من عرق جبينها ومن عمل يدها كخياطة رافضة أن تتقبل أي مساعدات من أي مصدر.

وبحثت عن مفردات أشد بها أزره.. وأضفي عليه معنويات عاليه.. وتجاذبنا أطراف حديث متقطع، وردد خلاله كعادته بضعة أبيات من الشعر.. ومن ثم سألته:

- ما هي وصيتك للشباب..؟

قال بوضوح وبنبرة مؤكدة:

- الله يسامحهم..

وشعرت كأنه يبعث برسالة إلى جميع أولئك الذين رافقوه، واختلفوا معه ولكنهم بالتأكيد لم يختلفوا عليه، إنه أبو علي الإنسان النبيل، الكبير، المتسامح، الصلب، العنيد، ولكنه الآن لا يعرف إلا التسامح والحب.

وأغلقت السماعة وأجهشت بالبكاء. كما هاجمت موجة من الدموع والأسى أفراد المجموعة التي تعمل معي عبر جهاز (السكايب) ومنهم داود إبراهيم ونظر الدلو وآخرين وكانوا يسمعون صوت أبو علي.. وساد صمت عميق، وانحدرت الدموع من المآقي خاصة وهم يستمعون إلى كلمات أبو علي وهي تحاول أن تخرج من أعماق قلبه لتصل إلينا. إن الكلمات تعجز عن تصوير مدى ما أحس به في هذه اللحظات المثقلة بالأسى والدموع.. المشحونة بالذكريات الحافلة.. ذكريات سنوات الكفاح والنضال والتصدي.. سنوات التحدي

والكبرياء والعطاء.. سنوات الزمالة على درب النضال والفداء والصمود.. سنوات وذكريات تمتد إلى عدة عقود.

وبعد لحظات جاءنا صوت أيمن.. وأوصيته خيرا بوالده.. وماذا يمكنني أن أفعل في هذا الموقف العصيب..؟ ومن ثم.. شكرت الصديقة المناضلة الأخت فاطمة البرناوي.. التي سهلت لنا الاتصال.. والحديث مع.. مهاتما فلسطين..

الثائر الزاهد..

جيفارا القدس..

المقاتل الجريء مانديلا العرب..

الأسير الذي كسر أسطورة الزمن وروض الأغلال..

زيارة لها دلالاتها

وقد زار الأستاذ إسماعيل هنية رئيس الوزراء المناضل أبو علي شاهين، فبرهن بذلك على إنسانية نبيلة وخلق رفيع، كما أنه أثبت بمدى ما يتمتع به أبو علي شاهين من حب في قلوب الجماهير، لقد كان رئيس الوزراء رائعا في هذا السلوك وفي هذه المبادرة التي تؤكد أننا شعب واحد وقضية واحدة وموقف واحد، وتأتي هذه البادرة التي حدثت على خلفية المحنة التي يمر فيها أبو علي بأنه كان ولا يزال موقفا وطنيا رائعا لصالح قضية الوطن وفلسطين، وهو القائل إن وجع الانفصال أشد مرارة وألما من وجع الأمراض.

مع عرفات في جبال الخليل

أبو علي شاهين شخصية تاريخية فذة، من الرواد الأوائل الذين رافقوا الرئيس عرفات في تأسيس الخلايا الثورية الفدائية المقاتلة في العمق الإسرائيلي، بُعيد هزيمة حزيران، عندما قرر القائد الفلسطيني أن ينقل مقر قيادته إلى قلب القدس.

كان العالم العربي في حالة ذهول ويأس، وكانت مواكب الأحزان والألم والغضب تعشش في كل مكان، وكان حجم المرارة والإحباط يكاد يعصف بكل شيء، بالأرض والشجر والإنسان والحجر، وكانت موجات الخيبة والإحباط والمرارة تحطم النفوس، وتكاد تفتك بكل بيت وبكل إنسان وبكل من هو عربي من المحيط إلى الخليج، ووسط هذا الطوفان المدمر الصاخب، يقرر المهندس الشاب الثائر ان يحارب، ليطوي التاريخ صفحات الهزائم ويفتح آفاق البطولة والفداء.

وحده عرفات

وقادة فتح

وأبو علي شاهين

ونخبة من رجالات فتح صمموا على مواصلة النضال والكفاح المسلح، ومن هنا نعرف عمق العلاقة النضالية التي كانت بين الرئيس عرفات وبين تلميذه وصديقه أبو علي شاهين رفيق الدرب، عاشا معا في المغروفي جبال الخليل والفياض وفي سهول وجبال وصحارى وقرى نابلس وبيت فوريك وقباطية وغيرها حيث كان أبو عمار يؤسس قواعد فتح وكان أبو علي شاهين رفيقه في كل خطوة من خطواته.

أبو علي شاهين ثائر منذ نعومة أظفاره، رفيق درب ونضال، صاحب قلب شجاع جريء، مؤمن بالكفاح المسلح، صادق في ولائه وانتمائه لقضيته، جندي باسل وقائد ذكي، ومخطط بارع في مدرسة عرفات.

لقد عبر القائد الفلسطيني الحدود السورية، ومن ثم الحدود الأردنية ومعه اثنين وسبعين رجلا، كان عبد العزيز شاهين واحدا منهم واجتازوا الأغوار بعد فترة تدريب في القواعد الفدائية في سوريا، وما أن عبروا نهر الأردن حتى استقروا في قواعد معينة وبدأ أبو عمار في تأسيس قواعد فتح في قرية بيت فوريك حيث كان يعرف باسم "أبو محمد" وكان يحلب الأغنام ويقوم بالرعي والفلاحة وفي نفس الوقت يؤسس لحركة مقاومة جريئة أحنى العالم العربي رأسه احتراما لها، ويومها قال الرئيس جمال عبد الناصر: إن المقاومة التي يقودها الفلسطينيون وعلى رأسها أبو عمار تعد أشرف ظاهرة نضالية في تاريخ الأمة العربية المعاصر.

خطوط وملامح شخصيته

كان أبو علي شاهين من النماذج الإنسانية الفذة التي صنعت تاريخنا المعاصر. كان دائما في خدمة الجماهير، وكانت بساطته وتواضعه تترجم حبه للبسطاء وللجماهير التي كان يبذل كل ما في وسعه لمساعدتهم والأخذ بيدهم، فهو ذروة في الإنسانية، وهو القائد المعلم الذي تخرجت في مدرسته أجيال من القادة والشبان المناضلين، ومنهم جبريل الرجوب، ومحمد دحلان، أحمد الديك، ومروان البرغوثي، ومحمد شتيه، وعدلي صادق، وتوفيق أبو خوصة، وسمير صبيحات، ومفيد عبد ربه، وعشرات وربما مئات الكوادر المناضلة التي تتلمذت على يده في مدرسة السجون، كما كان قائدا ومرشدا لجميع الحركة النضالية خلف الأسوار وكان بحكمته وخبرته ومعلوماته وثقافته على المستوى العالمي والنضالي والأممي وكان يبث في هؤلاء الشباب دروس العلم والوطنية ويتعهد هؤلاء الشباب بصورة تربوية تخلق منهم هذه القيادات التي لعبت دورا تاريخيا رائدا في النضال والتصدي للاحتلال في الجامعات وفي الانتفاضة الأولى وفي الانتفاضة الثانية.

وعندما تمعن النظر في تاريخ حركة فتح، وأساليبها في المقاومة والاستبسال نشعر أن وراء هذه الشخصيات عقلية جبارة ناضجة غرست فيهم كل معاني الانتماء والتضحية، ولا أخالني أذهب بعيدا إذا قلت أن عبد العزيز شاهين يعتبر مدرسة نضالية ومؤسسة ثقافية وتربوية رائدة ثقف الأجيال ثقافة عسكرية ونضالية من وحي الثورات التاريخية، كما كان مرشدا ومعلما ورائدا، ومفكر يمتاز بالزهد والبساطة والتواضع، والقدرة على توصيل الأفكار والتواصل مع الجماهير، وهذا ما لمسته بنفسي وما يعترف به كل أبناء فتح، فهو معلم ورائد وهو يؤمن بان القدوة في السلوك التربوي أفضل من التنظير بعيدا عن محك الحياة العملي.

ذكريات بغدادية

وللحقيقة والتاريخ فان الرئيس عرفات كان يقيم فترات طويلة في بغداد متخذا منها قاعدة لإدارة النضال وتوجيه المد الثوري الفلسطيني ضد العدو، وإدارة كل مجريات الثورة الفلسطينية ومنظمة التحرير من عاصمة الرشيد.

أذكر في إحدى المناسبات أني كنت في بغداد في مقر أبو عمار، وكان حول الرئيس كثير من الوفود والصحافيين العرب والعالميين والقادة الفلسطينيين وكان من بين الحاضرين عبد العزيز شاهين "أبو علي". يومها خاطبني قائلا:

- ماذا تفعلين في هذا الفندق؟ إن من واجبك أن تأخذي الكاميرا وتصعدي إلى الجبال وأن يكون الكلاشينكوف على كتفك، وتعملي تحقيقات وموضوعات صحافية من قلب الجبال وليس من المكاتب والصالونات.

واسترسل أبو علي قائلا في ثورة وانفعال: إن هذا الذي يفعله أبو عمار خطأ، إن العمل السياسي والدبلوماسي والاتصالات لن تحقق لنا أي نصر، وكل هذا الذي يقوم به أبو عمار لا يشكل ثورة.

وقلت له يومها إن أبو عمار دائم الاتصال بكل النقاط الساخنة في الوطن الفلسطيني، وعلى صلة بكل ما تفرضه عليه مستلزمات المعركة، فهو يقود الثورة من بغداد ليوجه حركة المناضلين في الضفة الغربية وبيروت، وفي تلك الفترة كانت حركة أمل تحاصر مخيمات صبرا وشاتيلا. وواصلت حديثي قائلة إن الرئيس لم يكن يغفل له جفن ولم يكن يعرف النوم، وكان يواصل ليله بنهاره قائدا للثورة على نحو ما كان يفعل شارل ديغول عندما كان يقود النضال ضد المحتلين النازيين حيث كان يتخذ من لندن قاعدة له.

كان قدوة في النضال والبطولة

ولا شك أن مسيرة أبو علي شاهين حافلة بالمواقف والبطولات والحكايات والشخصيات، إنها مسيرة مليئة باللآلئ والأصداف والجواهر، حيث تسطع فيها نقاط الضوء ولمسات البطولة البيضاء الصافية التي تهدي الضمائر والعقول والقلوب، وتمدها بشحنات إنسانية تسمو بها إلى آفاق رحبة من الطمأنينة والخير والحب والجمال.

هذه المسيرة التاريخية اصطدمت بكثير من الشخصيات والمواقف، وعاصرت نماذج من البشر والناس، ولكن عبد العزيز شاهين كان حكيما بعيد النظر برغماتيا في كل أحكامه، وكان دائما قادرا على أن يفرز النماذج الطيبة من النماذج المفتعلة الزائفة، وكان قادرا على أن يفرق بين التبر والتبن، والماء والسراب والحق والبهتان، كان دائما حكيما قادرا على أن يتجاوب مع لحظات السمو والتضحية والنبل والشجاعة في أعلى وأجمل صورها. وكانت دائما يده على الزناد وعينه على الكتاب، وعقله وفكره لا ينام، وقد عاش طوال حياته في كواليس وخنادق ومواقع القرار من الثورة الفلسطينية.

كان مثقفا، قادرا على أن يرد على الحجة بالحجة، والمنطق بالمنطق وكان ندا عنيدا لكل من يمثلون الحكم العسكري، كان يقارعهم بلغتهم، فقد كان يتقن العبرية وكان يعبر بها بسهولة ويسر وبلاغة تشهد انه كان فعلا رائدا ومربيا ومثقفا ودارسا للتاريخ وعارفا بأحكام وحركة التحرر على مستوى العالم، وخاصة فيتنام والجزائر وكل مواطن الثورة والنضال في العالم العربي من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر. لقد كان ببساطة قائدا على مستوى التاريخ، وعلى مستوى العالم العربي بل وعلى مستوى العالم الذي يناضل من أجل تحرره.

مؤرخ وأمين الثورة

ولو قُدر لعبد العزيز شاهين أن يكتب بصدق وتجرد وموضوعية وشجاعة عن كل ما عاشه ومن عايشه بأسلوبه السهل البسيط المعبر، لكنا أمام موسوعة درامية تاريخية نادرة من حقائق وخفايا وخبايا ثورتنا المجيدة، ولعرفنا وعرف العالم بأسره التاريخ من واقع عين بصيرة وقلب خافق بالحب، وضمير شفاف وقلم جريء. بل إننا على ثقة أن عبد العزيز شاهين المؤلف والكاتب سيكون في غاية الشفافية والصدق والقدرة

على جلاء الحقائق وتقديمها في إطارها النضالي والبطولي ليثري المكتبة الفلسطينية، بل وليثري مكتبة النضال العربي ولا نقول ذلك تفاؤلا وإنما من واقع كتاباته الرائعة عن الثورة الفلسطينية.

إن أبو علي شاهين طاقة جبارة وخزانة مليئة بالأسرار والمواقف، وبطل درامي أسطوري، لا يقل عن الأبطال الشعبيين الذين نقرأ عنهم في القصص والحكايات، ويشهد كل من اقترب منه واطلع على خفاياه وخباياه انه مثل صديقه ورفيق دربه ياسر عرفات ثروة قومية من التاريخ المعاصر بكل خفاياه وخباياه .

صورة من قريب للبطل الثائر

قد تُصادف المناضل أبو علي شاهين في برنامج تلفزيوني، أو في مداخلة سياسية أو ندوة أو موقف، لكن ما لا يعرفه الكثيرون أن هذا المناضل كان موسوعة فكرية وكان صاحب أسلوب ونهج يدعو إلى الاحترام والتقدير، يجيد الانجليزية والألمانية والفرنسية بالإضافة إلى العبرية وكانت جلساته حافلة بالمعلومات والتعليقات والأخبار والفكاهة والأدب والدروس التاريخية وسرعة البديهة، وكان قادرا على مناقشة أهم القضايا الفلسطينية، والتصدي لدعاة الحركة الصهيونية حيث يناقشهم باقتدار وبمنطق وكان ملما بالتاريخ المعاصر والتاريخ القديم وعلى دراية بعمالقة الأدب الروسي مثل تولستوي، والأدب الألماني مثل نيتشه، كما كان ملما بالأدب العبري القديم والحديث، وكان حاضر البديهة قادرا على الاستشهاد بالشعر العربي بطريقة تدل على التمكن وعلى أنه انسكلوبيديا إنسانية.

ذات مؤتمر صحفي

وما أذكره أنه عندما أفرج عن عبد العزيز شاهين، بعد أن أمضى خمسة عشر عاما وراء القضبان وتم نفيه إلى الدهانية جنوب رفح في منطقة صحراوية صعبة التضاريس، مليئة بالأفاعي والزواحف، عقد مؤتمر صحفي .. وكان المكان محاطا بعشرات الآليات العسكرية وتحولت المنطقة كلها إلى ما يشبه ساحة للحرب والقتال لمجرد أن الذي سيتحدث في هذا المؤتمر هو القائد الفتحاوي عبد العزيز شاهين، وقد سارعت الجماهير إلى مكان المؤتمر وتدفقت من كل اتجاهات من مدن وقرى ومخيمات قطاع غزة، وذهبنا؛ أسرة المكتب الفلسطيني إلى حيث المؤتمر الصحفي وكان هناك العشرات من الصحفيين والمراسلين من كل أنحاء العالم وخاصة من اليسار الإسرائيلي، يومها وقفت استمع مع هذه الجماهير وأنا في دهشة شديدة من ثقافة هذا المناضل، وحضوره وذكائه وقوة حجته ومنطقة، إنه يخاطبهم بلغتهم وبمنطقهم ويثبت لهم أن سنوات السجن صنعت منه هذا الإنسان المثقف الذي يؤمن بالسلم ويسعى إلى الحرية بالمنطق والعدل، وهو قادر دائما على أن يطوع ثقافته الإسلامية والعربية بل والعالمية لخدمة قضية وطنه والدفاع عنها، وقد أذهل الجميع بلباقته، وسحر بيانه وقوة شخصيته حتى أن الإسرائيليين أنفسهم قد ذهلوا من حقيقة هذا الثائر الذي رأت فيه الجماهير القائد المنتظر.

البطل بأقلام بعض من عرفوه

كتب سامي إبراهيم فوده أن أبو علي شاهين معلما حقيقيا للأجيال، فمنذ أن كنت فتى يافعا في السابعة عشرة من عمري، وأنا في قلاع الأسر في فترة الثمانينيات، قبل الانتفاضة الأولى التقيت بالقائد

الكبير وكنت من أشد العاشقين المعجبين به وذلك لسجله التاريخي النضالي والكفاحي الطويل الحافل والسخي بالعطاء وبعبقريته وحنكته ودهائه وفلسفة كتاباته الرائعة التي كانت وما زالت تعبر عن أصالة حركة الثورة الفلسطينية الرائدة وقصة فلسطين الثائرة.

وكتب عكرمة ثابت: يرقد اليوم أبو علي شاهين على سرير الشفاء، فاتحا صدره لاستيعاب حب الجماهير، شاخصا ببصره نحو مخيم تل السلطان، يستعيد ذكريات بشيت مسقط رأسه ومولده قرب مدينة الرملة البيضاء مدينة الوزير أبو جهاد، انه يستعيد بفخر واعتزاز شريط الانتماء والعمل العسكري السري ابتداء من دوحة قطر ومرورا بمعسكرات سوريا، واثق الخطوة يمشي مناضلا خلف قضبان السجون، ووسط حقول الألغام وفي فيافي الدهانية ولبنان وليبيا والأردن بعيدا عن رمال رفح وشاطئ البحر الذي تعلم من موجه أزلية المقاومة وأسطورة الاستمرارية.

وكتب عدلي صادق: التقيته في السجن للمرة الأولى قبل أربعين عاما تقريبا، وأذكر أني كنت أداعبه وأضاحكه في ذات شريط سينمائي للفنانة القديرة الدمشقية الأصل الممثلة ماري منيب.

كان بيننا تواصل ومودة وحب زادته زمالة السجن ثباتا وخطت على قلبينا ذكريات لا تنسى.

انه الرجل الذاكرة، وهو رفيق نبيل لتاريخ كفاحنا المعاصر، ولم يكن في يوم من الأيام ذا خطاب هجائي يشطب تاريخ ونضال رفاقه بل كان متسامحا عطوفا يعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

ثورة وتنظيم في عالم السجون

امتاز أبو علي شاهين بشخصية قوية، وكقائد عسكري كان حازما شديدا وكانت محبته لأبنائه من أبناء فتح وشبيبتها لا تمنع أن يكون حازما معهم في كل موقف، ومن أياديه الرائعة أنه نظم حركة السجون وجعل عالم المعتقلين نظيفا تسوده روح العدالة والإنسانية والاحترام، واستطاع أن يحقق انجازات هامة على صعيد التعليم وأن يتيح للطلبة المسجونين التقدم إلى امتحانات التوجيهي، وكان يجند المعتقلين المثقفين والدارسين لإعطاء هؤلاء الطلاب الدروس في الرياضيات واللغة الانجليزية وكافة العناوين التي تؤهلهم للحصول على الثانوية العامة، وبذلك ترتفع معنوياتهم وتصبح شخصياتهم أكثر قوة وصلابة، كما كانت الجلسات الثقافية التي تشتمل على محاضرات في السياسة والأدب والدين والفكر وشتى المناحي العلمية لها أكبر الأكثر في تقويم وخلق شخصيات سوية من هؤلاء الشباب التي أصبحت في مراكز القيادة اليوم في شتى المواقع على خريطة دولة فلسطين.

(2013/5/17)

الأخوان درويش .. سمير وزياد

استمدا من عكا الصلابة والشموخ والكبرياء والإيمان بأن الإنسان قضية وأن لحظة عزة وشموخ تساوي العمر كله.

صفحة مُعطرة بشذا البطولة والفداء من سفر النضال في مدينة عكا الباسلة حيث لا تزال فيها صلاة الفجر جماعة.

*** كانوا ثلاثة.. نشروا حديد نافذة في السجن الحصين واستعملوا الأسلاك الكهربائية الخاصة بآلات كيّ الملابس وهبط اثنان وعلق الثالث.**

انتظرت في أثينا ثلاثة وعشرين يوما لمقابلة الرئيس عرفات، فلما صرنا وجها لوجه قال لي: أين أنت يا رجل؟ لقد كنا نبحث عنك.

قصة أسرة من عكا.. الأب المحامي، والأم المعلمة، ومحارب حمل البندقية، وإعلامي حمل القلم.. أربعة عقود من النضال حكاية أسرة.. وقصة شعب

ثلاثة وعشرون يوماً في انتظار الرئيس

كان والدي يريدني أن أكون طبيبا.. منذ أربعين عاما، كانت الأسرة تريد أن يرن لقب دكتور في أرجاء البيت في مدينة عكا.

لا شيء جديد.. حكاية أصبحت من التراث، العائلة تريد أن تفرح، وتتباهى، تأمل أن يكون ابنها دكتورا.

وانصعتُ لإرادة الأسرة.. أبي المحامي المثقف الحنون، كان مثل بقية القبيلة يريدني أن أكون طبيبا.

وأنهيت دراسي في القسم العلمي، ونجحت في أن أكسر الحواجز، وأن التحق بدراسة الطب في اسبانيا.. في مدريد، لكن القدر العنيد الذي يصوغ العُقد الدرامية في حياتي وحياة أسرتي تدخل في الوقت الملائم، وربما الوقت غير الملائم، ويسقط أبي مريضا وأجدني عاجزا عن تحمل نفقات دراسة الطب، فأعود إلى أمنياتي القديمة لدراسة الإعلام وأصبح مخرجا تلفزيونيا.

وعندما اندلعت أحداث الانتفاضة الأولى التي هزت العالم بأسره التقطت الكاميرا لأخرج فيلما عن الانتفاضة، فلم يكن منطقيا ولا معقولا أن أخرج فيلما عن الانتفاضة التي هي رمز الشعب الفلسطيني وترجمة لمقاومته للاحتلال دون أن أقابل زعيم هذا الشعب وقائده ورمزه.

وسعيتُ بكل السبل.. كنت أدرك خطورة الموقف وأعرف أن العيون ورائي وحولي وأفهم إذا عرفوا فإني سأكون وراء الشمس ستة شهور دون محاكمة حسب قانونهم!.

أمضيتُ ثلاثة وعشرين يوما بانتظار موافقة الرئيس على أن ألتقيه في تونس وكنت أسعى، وأجتهد وأطالب، لكن الرئيس مرة في بوخارست، ومرة في الكويت، ومرة في بغداد، ومرة في فضاء إحدى القارات لا يعرفون أين ستهبط طائرته.

وأخيرا هبطتُ مطار تونس العاصمة، وكان صديق الصبا والطفولة ابن مدينتي عكا فوزي النمر في انتظاري.. أي سعادة غمرتني وأي انفعالات اجتاحتني، وأي موجات من الذكريات والشجن والدموع والتوهج زلزلتني. قال الرئيس:

- أهلا يا زياد. أين أنت، نحن ننتظرك، إننا نبحث عنك.

كنت في لحظة حاسمة من تاريخ حياتي، أنا لأول مرة فوق أرض عربية حرة، وأمام الزعيم الحلم.. القائد الرمز. قلت وأنا أحاول أن أمحو مرارة ثلاثة وعشرين يوما في انتظار هذه اللحظة.

- أنا هنا رهن إشاراتك.

أمضيت ساعات طويلة في مقابلة تاريخية مع الرئيس، وأخرجت وأنتجت فيلما وثائقيا عن الانتفاضة الأولى وكان ذلك في صيف عام 1988 وحمل الفيلم اسم" انتفاضة شعب".

كانوا ثلاثة، فراثنان من سجن الرملة

ووصلا إلى بيروت في نفس الليلة

والثالث علق في النافذة

كان أخي سمير رفيقي وصديقي وأستاذي، شهد أحداث النكبة عام 1948، واكتوى بنيرانها، وغمرته أحزان وأوجعته آلام. فقدنا بيتنا في مدينة عكا الجديدة، ومن ثم انتقلنا إلى بيت مستأجر في عكا القديمة في حي المجادلة.

ذاق مرارة القهر، وعذاب الاضطهاد، وقسوة الظلم، فثار، حمل البندقية والرشاش وتصدى لغسل عار الاحتلال.

وحكم بعشرين عاما.

وفي ليالي السجن الطويلة كانت الوحدة والمرارة والقسوة والألم.

ولم تكن أنغام "يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما"

تخفف من وطأة الاعتقال إلا قليلا.

كان لا بد من العمل، فكر سمير وخطط وصمم على التنفيذ.

نجح في أن ينتقل إلى حجرة كي الملابس في سجن الرملة الحصين، وانهمك مع رفاقه في عمل دؤوب وانضباط يوحي بالاستسلام، وذات زيارة قال لي وكنت أزوره بصحبة أمي. أريد أن تحضر لي معجون أسنان أخضر، ولما قرأ على ملامح وجهي تساؤلا غريبا قال لي بحزم واختصار:

- احضر المعجون الأخضر.

وكانت تعليمات السجون في تلك الفترة تسمح للأهل بان يحضروا لأولادهم بعض ما يحتاجونه، ولم يكن نظام الكانتين كوسيلة ابتزاز مثالية قد انتشرت في كواليس المعتقلات.

كان سمير ورفيقاه في غرفة كي الملابس التي تطل نافذتها من بناء شاهق على السور، وكان حديد النافذة المحكم ذا لون أخضر.

وتم نشر الحديد وإخفاء آثار النشر بالمعجون الأخضر. وفي لحظة حاسمة وفق ترتيب مدروس هبط الرفيق الأول بسلام، ومن ثم هبط الثاني وذلك باستخدام أسلاك المكاوي الكهربائية، وعندما جاء دور سمير ليهبط علق في النافذة، فقد كان طويلا، رياضي القوام، ممتلئ الجسم، شديد الوسامة.

وعندما أدرك المأزق الذي وقع فيه أشار على رفيقيه أن ينطلقا، فنجحا في عبور السور واجتياز كل العقبات ووصلا في نفس الليلة إلى بيروت.

وواجه سمير سجانه

تحمل المسؤولية بروح البطل وشجاعة الفدائي وصبر الرجال.

أخي الحبيب.. ما تخيلت لحظات القسوة والعذاب التي صبها عليك، زبانية القهر والتعذيب، ما تذكرت ذلك إلا أهديت لك دمعة وقبلة، وذكرى وقرأت لك الفاتحة. فقد كنت بطلا.

عاش سنوات معدودة ولكن في كل سنة كانت له علامات ومواقف وتاريخ، فتأمل كم يمتد بنا العمر طويلا، مملا، شاحبا، كئيبا في حين تتوهج لحظات قليلة في حياة عباقرة الرجال، فتملأ الفضاء شجنا وعطرا وقيما وفرحا وضياء وقدوة، كأنهم الأنبياء، كأنهم رسل السماء، كأنهم منارات الحق والحقيقة والهدى والتاريخ.

كان رفيق أحمد جبريل في القيادة العامة

غادر أخي سمير عكا عام 1956.. كان يومها في الثامنة عشرة من عمره، وكان رحيله عن بيت العائلة بسبب الجو العام الذي كان يسود عكا في تلك الأيام، كان الجو خانقا، كئيبا، حزينا، وكان الشباب يشعرون بان هناك جرح عميق يسكن قلب مدينة عكا وأن هذا الجرح ينزف دما ودمعا وألما لا يكاد يتوقف، وكانت مشاعرهم محبطة، ونفوسهم قلقة، حائرة، وخطواتهم على درب الضياع وشعروا بأن عكا معصوبة العينين، مكتوفة اليدين، حائرة لا تستطيع أن تكتم آلامها، فكل ما فيها ومن فيها حزين، كاسف البال، مجروح الفؤاد، كل شيء كان في حالة ألم، الماء والموج والإنسان والشجر والثمر، والصخر والطير والحجر، فهرب سمير إلى الأردن.

لحق بأحد الأفواج التي كانت تبحث عن الخلاص، وفي سرية تامة تسلل عابرا الخطوط، مغامرا بأن يقع مثل من سبقوه بين يدي السلطات الأردنية التي كانت لا بد وأن تعيده مع موجات الشباب الذين كانوا يتسللون عبر الحدود إلى إسرائيل.

وكانت تتم محاسبتهم وإيداعهم السجون.

وبالفعل استطاع سمير أن يعبر الحدود، ولكنه وقع في يد السلطات الأردنية وتم التحقيق معه، وكان مقدرا أن تتم إعادته إلى إسرائيل لولا أنه استنجد بقريب لنا (ابن خال والدتي) خير الله بك الجراح الذي كان المرافق العسكري للملك عبد الله، واستنجد به سمير واستطاع الوصول إليه فحضر، وتعرف عليه وطلب من السلطات إلا يعيدوه، ومن ثم ذهب إلى سوريا التي كان لنا فيها احد أقربائنا وهو عمي. وهناك ساعده عمي في إكمال دراسته الثانوية والجامعية، وبعد فترة قصيرة قام بتأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين- القيادة العامة بالتعاون مع احمد جبريل ورفاقه.

وانهمك أخي سمير في عملية النضال، وكان يقوم بعمليات جريئة حيث يعبر الحدود ويدخل إلى الأراضي المحتلة ويقوم مع رفاقه بعمليات وضع متفجرات في أماكن معينة وخاصة في حيفا كما قام بإرسال رسائل مفخخة إلى كل من اشكول وغولدا مائير وغيرهما من الشخصيات الإسرائيلية الهامة.

وفي الواقع كنت أنا على اتصال دائم معه، فقد كنت أراسله عن طريق صديق يقيم في لندن وكان هذا الصديق يحول الرسائل من لندن إلى سوريا حيث يقيم أخي.

وتواصل عمله النضالي حتى القي القبض عليه في (روش بينا) قرب صفد، وبالتالي تم إلقاء القبض عليّ أيضا بسبب اتصالي معه، وأمضيت في المعتقل حوالي أربعة شهور وكان ذلك عام 1966 وأوائل عام 1967.

وتم الحكم عليه بالسجن عشرين عاما، وأطلق سراحه في عملية التبادل التي عرفت باسم "النورس" وكانت بين الجبهة الشعبية- القيادة العامة وإسرائيل، وكانت على أساس تسليم إسرائيل جنديا واحدا مقابل ستة وسبعين فدائيا وكان منهم أخي سمير.

كنت أضم حفيدي شفيق
وأملأ رئتي ووجداني بشذا والده الشهيد

بعيد حرب بيروت عام 1982، كانت السلطات الإسرائيلية تسمح لأهالي الجليل بمن فيهم أهالي عكا بالحصول على تصاريح تسمح لهم باجتياز الحدود والذهاب إلى بيروت وصور وصيدا وغيرها، للتواصل مع أهلهم الذين فرقت بينهم ظروف حرب ضارية. وقد تدفق أهل الجليل على مكاتب الارتباط العسكري ووزارة الداخلية للحصول على التصاريح المطلوبة لزيارة صور وصيدا وبيروت.

وسعت والدتي لاستخراج تصريح لتذهب إلى زيارة حفيدها شفيق سمير درويش، ووالدته، وكانت سعادتها لا توصف عندما شعرت بأنها سترى شفيقا وستحضن سميرا الشهيد، في شخص حفيدها الحبيب.

ما أجمل الدنيا!

وما أرق القدر!

وما أروع تصاريف الزمن!

عندما يجود علينا القدر بلحظات فريدة، ليست من عمر الزمن، هل حقا سأحتضن شفيقا، هل سأضمه إلى صدري، وهل استنشق عبير سمير وأملأ صدري بعطره، وهل سأملأ أحضاني بشفيق، كأني أضم إليّ سميرا، ما أجمل ذلك وما أروعه، يا الهي كم أنت رحيم كريم، كم أنت عطوف شفيق رؤوف بنا.

وذهبت والدتي إلى حيث تعيش أرملة الشهيد وعادت ومعها حفيدها الصغير شفيق وقد اتفقت مع أمه على أن يبقى عندنا ويعيش بيننا. وما هي إلا أيام حتى عاد الشبل إلى عرين أبيه إلى عكا مسقط رأس والده، والى أحضان جدته وأهله.

وأمضى شفيق، شهرين في ربوع عكا..

وعندما حضر أخي وليد للقائه.. ولمحه..

كان الشبه بين أخي وليد وبين أخي سمير كبيرا، فظن الصغير أن والده عاد من السفر، فانطلق يركض نحوه، ويتعلق به وهو يهتف:

- بابا.. بابا..

وغرق المكان والزمان والأشياء والأشخاص في موجة من الدموع، أبكانا شفيق بنفس الحرقة التي أبكانا فيها رحيل والده البطل.

وبعيد ذلك بفترة قصيرة نشرت إحدى الصحف اليمينية المتطرفة أن أحد أبناء الفدائيين يتجول في ربوع عكا حرا طليقا.. فجاءت السلطات، وحاولت انتزاع شفيق من بين أحضان جدته، ولكنها رفضت وتعهدت لهم بأن تعيده بنفسها إلى لبنان.

وكانت لحظات عصيبة متوترة تتفجر بالانفعال واللوعة والألم عندما اضطرت الجدة إلى إعادة حفيدها وفراقه. لقد بكت يومها بكاء شديدا، أبكانا جميعا، وخيم على المكان جو من الأسى والحزن وشعرنا كأننا نفقد سميرا مرة أخرى. لقد كانت دموع الوالدة وحسرتها وألمها طاغيا عنيفا موجعا محرقا تماما كما كان يوم فقدت المناضل الشهيد البطل سمير درويش.

بانوراما الأخوين درويش
في ربوع مدينة التاريخ عكا

ولد زياد شفيق أحمد درويش يوم 1950/6/10 في مدينة عكا في حي (المجادلة) وكان ذلك بُعيد قيام دولة إسرائيل التي ما لبثت أن احتلت بيتنا في عكا الجديدة وأجبرتنا على أن نرحل عنه إلى عكا القديمة حيث اشترى والدي بيتا، وولدت في هذا البيت، ولم نكن استثناء في هذا الموضوع، فان معظم سكان عكا أُجبروا على ترك بيوتهم والتوجه إلى عكا القديمة وقد استقبلوا ذلك بنوع من التسليم والرضا بالأمر الواقع على اعتبار أنهم سيعودون إلى بيوتهم في فترة قصيرة.

ويقول زياد: كنت الابن الأخير لوالدي، فقد أنجب والدي أربعة أبناء وبنتا واحدة وهم نبيل ومنى وسمير ووليد وزياد.

وكان والدي يعمل محاميا ورئيس دائرة الترجمة في المحكمة المركزية في حيفا منذ زمن الانتداب. وكان دارسا وعلى ثقافة عظيمة فقد تلقى تعليمه في الجامعة الأمريكية في بيروت، وعندما توفي كان في الثالثة والستين من عمره. أما الوالدة فكانت سيدة بالغة الجمال ولكنها كانت أيضا كتلة من الحنان والحزم وبقدر ما كان والدي عصريا ومتسامحا وودودا في تعامله معنا، كانت الوالدة محبة وعطوفة ولكنها شديدة الحزم والصرامة والسيطرة على أفراد الأسرة والاهتمام بدراستهم ومتابعتهم بصورة واعية خاصة وأنها كانت تمارس مهنة التعليم، لذلك كانت التربية من أهم سمات شخصيتها.

كانت والدتي تعمل مدرسة في المرحلة الابتدائية في مدينة عكا وكانت قوية الشخصية حازمة شديدة البأس وتمتاز بجمالها وكان اسمها "جميلة" فهي والحق يقال اسم على مسمى. وقد أثرت في حياتي بصورة كبيرة واني لا أزال أذكر تفاصيل حياتنا المشتركة وما واكبها من أحداث خطيرة ومآسٍ إنسانية تمثلت في رحيل الوالد وفي استشهاد سمير وفي فقداننا لبيتنا وفي مرافقتي لها لزيارة أخي المعتقل ثم الحادثة الدرامية العنيفة التي هزت كياننا جميعا عندما حاول سمير الهرب، ثم انتزاع حفيدها وإعادته قصرا إلى لبنان، كل ذلك مخطوط بسطور من الألم والشجن على صفحات قلبي ولذلك فان ما ترونه من ميلي إلى المرح والدعابة إنما هو مجرد قشرة خارجية وما أصدق ما يقوله الشاعر في ذلك:

"لا تحسبوا ضحكاتي بينكم طربا فالطير يرقص مذبوحا من الألم"

جدتي الحبيبة أم هاشم

وكانت جدتي أم هاشم تعيش بيننا وهي أم الوالدة، ولا زلت أذكرها بحنانها وبرها وعطفها الشديد على أفراد الأسرة، وإضفائها جوا من المودة والأنس والحب في جو الأسرة.

كانت بلباسها التركي التقليدي القديم تمثل الارستقراطية الفلسطينية التركية في أجلّ معانيها حيث تلبس لباسها التقليدي التركي الأسود (البرلين) أو الخمار الأسود الذي يغطي الوجه، وظلت تتخذ هذا الزي حتى بعيد الاحتلال وحدوث النكبة.

وكانت تحرص على يوم الزيارة الذي يعرف بيوم (الاستقبال) شأن العائلات الارستقراطية في بلاد لشام حيث يخصص هذا اليوم لاستقبال الصديقات، ويتم فيه تقديم الحلوى والمأكولات وإحضار آلة العود وتعزف أجمل الألحان والأغاني باشتراك جميع الموجودات، وكانت السيدات تدخن النرجيلة مما يجعل يوم الاستقبال يوم فرح وسرور وتواصل اجتماعي وبعث لعناصر الأمل والحياة والرغبة في تحدي كل المآسي والآلام. فنحن في الحقيقة شعب ولد ليعيش.

خطوات على درب العلم

يقول زياد: التحقت في الصف الأول الابتدائي بمدرسة الأمل الابتدائية في عكا، وعندما انتقلت إلى الثانوية التحقت بمدرسة يغلب عليها الطابع العبري. وكان والدي على وعي بهذه الخطوة لأنه كان يريد أن يؤهلني لدخول الجامعة العبرية ومن هناك أمضيت في هذه المدرسة سنوات الدراسة إلى أن وصلت إلى الصف التاسع، وكنت من الطلبة المتفوقين ولكن العنصرية التي تبدت نحوي جعلتني أغادر هذه المدرسة لالتحق بمدرسة (يني) في كفر ياسيف.

والحقيقة أن هذه الحادثة أثرت في وجداني، فقد اكتويت بنيران العنصرية وأنا في مقتبل العمر لأني كنت الطالب العربي الوحيد في المدرسة وكنت متفوقا، وربما ألب هذا التفوق بعض النفوس الصغيرة فكانت تأخذ مني موقفا رغم أن بعض المعلمين الإسرائيليين كانوا يبدون التشجيع لي ويتيحون لي فرص التفوق والنبوغ.. إنها الحياة ما دمت تتسلح بالنوايا الطيبة والقلب النظيف ستجد دائما الأيادي المنصفة التي تمسح عنك خطايا الزمن.

أحلام جامعية

ما أن أنهيت الدراسة الثانوية حتى توجهتا اسبانيا لدراسة الطب وكان ذلك عام 1970 بتوجيه من والدي وإصراره على أن أتخصص في هذا الفرع من العلم خاصة وأنني كنت قد أنهيت دراستي في القسم العلمي. كما أن بعض أصدقائي كانوا يدرسون في اسبانيا ومنهم محمود الخطيب وكامل منصور.

واستطعت أن انهي دراسة السنة التحضيرية المكرسة للغة في ثمانية أشهر وسجلت في كلية الطب في جامعة اشبيليا ولكن حدث ما لم يكن متوقعا، فقد أصيب والدي بجلطة دماغية أقعدته في الفراش ولم أتمكن من تأمين مصاريف الجامعة، فكان لزاما علي أن أعود إلى عكا لاقف بجانب والدي ولأخفف أعباء التعليم الجامعي عن أسرتي.

وبعد ستة شهور توفي والدي وكنت يومها في الحادية والعشرين من عمري، ومن هنا تخليت عن طموحي في أن أصبح طبيبا وتوجهت إلى دراسة الإعلام حبي الأول والذي يتوافق مع ميولي الأدبية واللغوية،

فقد كنت أحب الشعر والأدب واللغات ومن هنا التحقت بكلية الإعلام في تل أبيب، حيث حصلت على البكالوريوس في الإعلام وتخصصت في الإذاعة والتلفاز، وكان ذلك عام 1975 وهو نفس العام الذي ارتبطت به برفيقة عمري وأم أبنائي "مريم الغزاوي" التي كانت قد سارت في نفس مشواري من حيث دراسة الطب ومن ثم الاتجاه إلى فرع آخر وهو التجميل الطبي.

والدراسة والبحث وتقديم الجديد من العناصر الهامة في شخصية زياد درويش، فقد حصل على الماجستير من الجامعة العبرية، ثم حصل على الدكتوراه من الجامعة الأمريكية تخصص إعلام جماهيري. وكان التحاقه بالعمل في جريدة "فلسطين" التي أصدرتها في مطلع سنوات الانتفاضة الثانية فرصة لاكتشف مواهبه وقدراته الإعلامية ورغبته الصادقة في تقديم كل ما هو جديد ومثير ويبعث على الدهشة ويدعو القارئ إلى التفكير والعمل، والذي يطلع على أعداد فلسطين عندما كان زياد درويش رئيسا لتحريرها سيلاحظ وجود زخم صحفي رائع خاصة في ما يتعلق بالإسرائيليات.

ومن انجازاته الإعلامية التي تذكر له انه كان من الطليعة المؤسسة لتلفزيون وإذاعة فلسطين التي انطلقت بعُيد عودة السلطة إلى أريحا حيث كان يقوم بتدريب أطقم مختلفة على الإذاعة والتلفاز حيث كانت التدريبات تجري في القدس في مسرح الحكواتي ثم انتقل التدريب إلى مدينة رام الله، وأشهد أن هذا العمل الرائد الذي يعد مظهرا من مظاهر السيادة الفلسطينية كان يتم بروح نضالية وكان زياد ورفاقه يقدمون خبراتهم الأكاديمية الرائعة متطوعين. ويستمر زياد بالعمل الإعلامي حيث أسس لأول إذاعة عربية في الداخل وبرؤوس أموال فلسطينية في مدينة الناصرة أطلق عليها اسم راديو 2000. كما وعمل منتجا ومقدما لبرنامج صباحي في صوت السلام في مدينة القدس. ويواصل زياد نشاطه الاعلامي حيث عمل مديرا للاعلام ورئيس تحرير في إذاعة الامم المتحدة في السودان والتي كانت تبث باللغتين العربية والانجليزية، وبعد عام تم استقطابه كخبير إعلام ليدرب الكوادر الإذاعية في الإذاعة الوطنية التونسية بعيد الثورة.

العلم الفلسطيني على قمة العالم

خاض زياد درويش تجربة فريدة هي مزيج من المغامرة والخيال والعمل الوطني والإعلامي، فقد اتصلت به مجموعة من الشباب الذين كانوا يفكرون في عمل إعلامي رائد يجمع بين الفلسطينيين والإسرائيليين ليدل على أن السلام يمكن أن يتحقق بين الشعبين وذلك عن طريق القيام بأعمال إنسانية مشتركة.

يقول زياد: اتصل بي بعض النشطاء الإسرائيليين من محبي السلام، وكانوا أربعة من توجهات سياسية مختلفة، وطلبوا مني أن أشترك معهم ضمن أربعة شباب فلسطينيين لنقوم برحلة إلى قمة العالم في قارة "أنتاركتيكا" في القطب الجنوبي حيث تبلغ درجة الحرارة في تلك الفترة 15 درجة تحت الصفر.

ولما كان هذا العرض يتضمن عملا سياسيا له أبعاده الهامة والخطيرة فإني قلت لهم إني لا استطيع أن آخذ قرارا في هذا الموضوع، يجب الرجوع إلى الرئيس أبو عمار، وبالفعل توجهت إلى مكتب الرئيس وشرحت له الفكرة فأبدى تفهما وتعاطفا وتحمس لهذه الفكرة وقال لي عليك أن تقود الفريق الفلسطيني في هذه الرحلة وشاركني في هذه الرحلة كل من الأخوة ناصر قوس وسليمان الخطيب.

وقد قمنا بالاستعدادات اللازمة وكنت قد طلبت من السيد الرئيس علما فلسطينيا لنرفعه فوق قمة العالم فاستدعى الرئيس من يحضر العلم وكان علما كبيرا وشرفه الرئيس بالتوقيع عليه، وقد نجحنا فعلا

في أن نرفع هذا العلم على قمة العالم بعد رحلة شاقة استغرقت أربعة وثلاثين يوما تعرضنا فيها لكل ألوان المغامرة والمخاطرة وربما الموت في بعض الأحيان، ولكننا أخيرا رفعنا علم فلسطين عاليا على قمة العالم ليشهد بأننا شعب عامل محب للسلام متعاطف مع الآخر ويحترم إنسانية كل الشعوب، فلسنا إرهابيين كما يحلو لهم أن يطلقوا علينا، بل إن فينا من لديه الجرأة والشجاعة للقيام بهذه الرحلة الرياضية الخطيرة في الوصول إلى ذروة العالم في ظروف جوية عاصفة خطيرة تنذر بالموت والهلاك ولكن إرادة الحياة دفعتنا إلى القيام بهذه المغامرة الخطيرة تحفنا رعاية الرئيس وتشجيعه. لقد قمت بحمل عدة كتب معي منها القرآن الكريم وديوان لابن عمي الشاعر محمود درويش وكتاب لادوار سعيد.

وأذكر أن أحد أفراد الرحلة من الجانب الإسرائيلي قال لي: لقد خدعتمونا وجبرتم برنامج الرحلة لصالح منظمة التحرير. ولكنني أجبته إن مواقفك اليمينية هذه لا تساعد على نجاح هذا الإنجاز التاريخي للشعبين الفلسطيني والإسرائيلي بمشهد من إعلام العالم وبشهادة كل منصف محب للسلام.

وكان زياد الثاني

وأذكر أن الصحافة العالمية ذكرت أن جورج دوماني ابن عكا الذي نجح في أن يتسلق قمة العالم في قارة (أنتاركتيكا) حيث رفع يومها العلم اللبناني على اعتبار أنه لم يكن هناك مجال لرفع العلم الفلسطيني، ولكن الحقيقة تبقى ساطعة وهي أن شابا من عكا نجح في ان يصل قمة القارة وأن يرفع علما عربيا عوضا عن العلم الفلسطيني، على أن جورج دوماني وهو عالم جيولوجي له كثير من الأبحاث والدراسات وقد سميت القمة التي اكتشفها باسم (جبل دوماني).

ويذكر في هذا الصدد أيضا أن رائد زيدان من كفر لاقف- جنين قد تلقى تهنئة الرئيس محمود عباس منذ أسبوع لأنه نجح في أن يرفع علم فلسطين على قمة إفرست ضمن مجموعة من أربعة أفراد.

(2013/5/25)

عزت أبو الرب

كان يؤمن أن البندقية المسيسة هي التي تصنع النصر

وكان أحد ثلاثة من المعلمين هم صلاح خلف وخليل الوزير وخطاب أبو الرب

آمنوا بالبندقية كما آمنوا بحتمية انتصار الشعوب.

في أحد بيوت قباطية، أُعدت طاولة صغيرة، ووضع فوقها السيف والمصحف

وتقدم الشباب يؤدون يمين الثورة أمام شاب متوسط الطول، أصلع الرأس حاد النظرات إنه الزعيم القائد

سأل أحد شبان الثورة القائد: ما اسمك؟ فرد عليه الرئيس: لماذا تسألني عن اسمي هل سألتك عن اسمك؟ كانوا نخبة من المقاتلين الذين لا يعرفون أسماء بعضهم بعضا، يعرفون فقط أنهم جاؤوا للقتال والنصر.

إيقاع الثورة وشرارتها الأولى انطلقت من قباطية، القرية بأسرها، جبالها وصخورها، وأشجارها ومنحدراتها وكهوفها

كانت تؤدي سيمفونية النضال التي تعزفها نساء القرية ورجالها وأبطالها.

في النهار يتم إعداد الطعام، ويتم غسل الثياب وتجهيز سلال الفاكهة، وفي الليل ينطلق المناضلون يحملون السلاح، في قلوبهم بهجة وفي عيونهم تصميم، فإذا جاء الفجر اختفوا وأشرقت شمس يوم جديد. انه إيقاع الثورة.

على السيف والمصحف كان القسم

كان معلم اللغة العربية الأستاذ عزت فريد أبو الرب قد عاد إلى قباطية في إجازة العام الدراسي 1966 ومعه زوجته التي كانت تشاركه مهنة التدريس ووقعت كارثة "خمسة" حزيران.

وجاء المجاهدون.. وعلى رأسهم "أبو محمد".. واتخذوا من قباطية قاعدة لإرساء قواعد "فتح".

وسمع "أبو محمد" عن تاريخ أبو عزت.. جاء أبو عمار ورفاقه.. كان يرتدي قميصا أبيض وبنطالا عاديا.. وجاءوا بطاولة صغيرة.. ووضعوا فوقها السيف والمصحف.. وأقسموا اليمين على النضال والعهد.

وأصبح مدرس اللغة العربية "خطاب" عضوا في فتح، كانوا بضعة شباب لا يتخاطبون بأسمائهم الحقيقية، ولا يعرفون اسم القائد الحقيقي.. وعندما سأل أحدهم الرئيس عن اسمه قال له في حزم:

- هل سألتك عن اسمك؟ لماذا إذن تسألني عن اسمي؟

إن النضال من أجل فلسطين هو اشرف غاية.. وأنبل هدف.. وأعظم رسالة.

منظر الشباب وهم يؤدون القسم وأيديهم على السيف والمصحف كأنها سيمفونية الخلود والنصر، لقد كان مشوارهم مع القائد المناضل عزت فريد أبو الرب طويلا شاقا، مليئا بالمعارك والمطاردات والترحال والمفاجآت، مليئا بالدم والدموع والنار والرصاص والاستشهاد، لكن منظر الشباب وهم يؤدون القسم في بيت "والده" في قباطية لا يزال يطل على أولاده كلما زارهم طيف الشهيد القائد خطاب.

نساء قباطية سيمفونية نضال

شكلت قباطية بطبيعتها الجغرافية وتضاريسها الفريدة وشبابها وأهلها، قاعدة مثالية لانطلاق الثورة، كان "أبو محمد" على خبرة بطبيعة المنطقة، سهولها وجبالها، روابيها الصخرية وكهوفها ومغاراتها وطرقها ومنحدراتها ومساربها الوعرة ومناطقها المجهولة التي لم تطأها الأقدام.

والتف الشباب الثائر الوطني حول "أبو محمد" المهندس الذي ترك الهندسة ليؤسس ثورة، كان الشباب يتفجرون حماسا وإصرارا ورغبة في قهر هذا العدو الذي جاء ليحتل بقية أرضهم في صيف عام 1967.

كانوا أنموذجا ثوريا مقاتلا لما كان يريده أبو عمار ورفيقه أبو جهاد وابن قباطية القائد المثقف الأستاذ خطاب ابن شيخ المناضلين الثائر أبو عزت أبو الرب.

كان الفدائيون يعملون في الليل ويختفون في النهار، ينطلقون من قواعدهم في سرية تامة وانضباط وشجاعة وجرأة لينفذوا العمليات العسكرية الخطيرة في قلب قواعد العدو، وكان يتم ذلك بجرأة وشجاعة وثقة تحت جنح الظلام، فإذا انبلج الفجر وأشرقت الشمس على ارض قباطية الوادعة الآمنة اختفوا كأنهم الأشباح واستيقظت القرية بكل مفرداتها لأداء عملها كأن شيئا لم يكن.

أداء نضالي وعسكري وعمل فدائي منضبط، وكانت نساء قباطية صورة مجسدة رائعة للعمل الثوري، كانت النسوة يقمن بإعداد الطعام للمقاتلين، كما كن يقمن بغسل ثيابهم وأغراضهم وإحضار سلال الفاكهة والخضراوات لهم، يقمن بهذه الأعمال في سرية تامة وانضباط عفوي فطري، وإيقاع بسيط وأسلوب سلس. وكان ذلك كله يتم تحت إشراف وتوجيهات "المايسترو" المثقف الأستاذ خطاب.

وتتواصل المقاومة تصلي العدو نارا وجراحا، وتشعل الأرض تحت أقدام المعتدين لهيبا وضراما.

هنا في قباطية شعب ثائر، ورجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، الشباب يقاتلون بجرأة وحماسة والنساء يقمن بالواجبات البيتية على أحسن ما يكون.

كنت ترى في عيون الشباب الحماسة والإخلاص والإصرار الجارف على أن يتصدوا للعدو، وعندما كنت تلمح السلاح في أيديهم ترى في عيونهم النشوة والفخر والعزة، إنهم يقاتلون هذا العدو الذي سقى الأمة العربية كأس الهزيمة، وجرّع قيادتها سم العار والمهانة في ستة أيام، وربما في ست ساعات، ولكن ها هم رفاق أبو عمار أحفاد الشيخ عز الدين القسام تلاميذ المناضل الثائر القائد خطاب والقائد أبو جهاد يقاتلون

بكل بسالة وضراوة، إنهم على عهد ووفاء، تعاهدوا على المصحف والسيف، على الشهادة والقتال وكان خطاب واحدا منهم، كم تشعر بالفخر والاعتزاز والنشوة وأنت تعرف انه واحد منهم، لم يكن مهما أن يعود إلى السعودية ليواصل عمله، فما أرخص المال والمنصب والوظيفة أمام رسالة عظيمة، رسالة الانضمام إلى صف الجندية الثائرة، المقاتلة تحت قيادة ذلك الشاب الأصلع الذكي الخجول المهيب الوقور، القائد الحازم "أبو محمد" الذي عرف بعد ذلك بلقب الرئيس أبو عمار.

عمان.. والملك.. وزمزم 105

ما أجمل تلك الأيام..!

تحولت الأردن كلها في عهد الملك حسين إلى قاعدة كبيرة للعمل النضالي الثوري، أعطى الملك الحرية كاملة للثورة الفلسطينية لكي تؤسس وتنظم وتجند وتقاتل.

وانطلق صوت العاصفة كإذاعة مسموعة من عمان، وكان صوت خطاب الذي يتفجر ثورة وبركانا يذيع الافتتاحيات والبيانات الثورية ويشرف على برامجها بعد أن قام بتأسيسها، وكانت تنطلق من جبل الشرفية باسم "زمزم 105".

ونجح الشباب في ان يحولوا كل جبال عمان إلى قواعد فدائية، ففي كل رابية وحول كل تلة كان هناك مركز للتدريب على السلاح، ومركز لتدريب الأشبال، ومركز للهلال الأحمر ومعسكرات لتدريب الفدائيين، وانتشرت هذه المراكز في ربوع جبال عمان السبعة، في الأشرفية، وجبل التاج وبقية جبال عمان.

كان الأداء النضالي الثوري شديد الانسجام، محكم الإيقاع، وكان خطاب ينسق مع أبو علي إياد ومع أبو جهاد في قيادة القطاع الغربي، وأخذت القيادات تبني القواعد في السلط وأحراش عجلون وجرش وفي المخيمات.

وكان خطاب يقود العمل الثوري النضالي الإعلامي، كان خطيبا مفوها، وكان قائدا تاريخيا ملهما، يعرف كيف تنطلق الرصاصة من الرشاش، وكيف تنطلق الكلمة عبر الميكرفون، وكان يؤمن، أن المقاتل المثقف هو المناضل الذي ينتصر، وان بث الوعي والإيمان في صدر الثائر هو الذي سينير دربه، ويقوده الى آفاق النجاح والانتصار.

ما أجمل تلك الأيام..!

ما أروعها بذلك الإيقاع الثوري النضالي، ما أبدع تلك الحماسة الثورية النبيلة التي كانت تخفق في الصدور، وتحتل مسامات جسم وعقل ووجدان كل أبناء فلسطين والأردن في تناغم نضالي ثوري وتكامل وتعاطف اخوي.

وكان خطاب ينظم الإيقاع النضالي من خلال كلماته وخطبه ونداءاته وبرامجه، كان قائدا محاربا، فذا، خلق ليكون إلى جانب نخبة من الرواد الثائرين.. ياسر عرفات وخليل الوزير وأبو علي إياد وممدوح صيدم وصلاح خلف (أبو إياد).

كان قادرا على التأثير والاستقطاب وضم المناضلين وتنظيمهم، وساهم في أن يحول المملكة الأردنية كلها من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، إلى قواعد ومراكز للثورة.

الملك حسين رؤية تاريخية

وكان جلالة المغفور له الملك حسين بحسه التاريخي، وقيادته الحكيمة يسمح للثورة الفلسطينية بأن تفعل كل شيء، وأن تقوم بكل شيء، لتناضل وتقاتل وتسترد وطنها المغتصب، إنه قائد منطقي مع نفسه، منطقي من وجهة نظر الأحداث والتاريخ، لقد احتل اليهود فلسطين وأخذوا أرض هؤلاء الشباب وطردوهم من مدنهم وقراهم، فحق لهم أن يقاوموا، وحق للقائد العربي أن لا يغل أيديهم، ولا أن يقف في طريقهم مهما كانت العواقب.

ما أجمل تلك الأيام!

ما أجمل الوفاق والاتحاد!

وما أروع أن تصفو النفوس وتجتمع العقول والنوايا والأهواء على هدف نبيل، وأي هدف أسمى وأعظم من تحرير فلسطين، واستعادة القدس وتحرير الأقصى والقيامة.

كان منطق خطاب ورفاقه لن ننتظر العرب ليحرروا فلسطين لنا، نحن سنحررها بسواعدنا وأرواحنا ورجالنا. واستمع جلالة الملك حسين إلى منطقهم، وقال عبارته المشهورة (لعل الله يهديهم).

خطاب المناضل المثقف

دعنا نتأمل بعض أفكار وكلمات المناضل عزت خطاب لنعرف أي روح وطنية ثائرة كانت تسكن هذا المقاتل المثقف.

يقول: إن عملية بناء الإنسان في الثورة هي من أصعب ما يواجه القيادات الثورية في مسيرة النضال. فمن خلال معتركات الميادين والتعميد بالنار والدم والبارود، يتحول المقاتل إلى إنسان جديد، وذلك أن البندقية المسيسة هي صانعة الانتصارات.

وفي سياق آخر يقول خطاب: إن بنادق الثورة الفلسطينية، وبنادق الحركة الوطنية اللبنانية هي الضمان الوحيد للانتصار، ولكن في نفس الوقت مطلوب منا المزيد من الانفتاح الثوري، المزيد من ضبط النفس، المزيد من محاسبة النفس، المزيد من التركيز على الايجابيات والضرب بشدة على السلبيات والسلبيين.

ويصور خطاب المقاتل الفلسطيني بلغة شعرية جميلة فيقول:

دائما يأتي إليك مشحونا بالأحلام

راكبا البحر على ظهر قارب

راكبا الريح على متن طائرة

آتيا تحت نجمة أو من خلال قرص الشمس

يجدف

يحلق

يقتحم

ويعود.

ثم يخاطب فلسطين قائلا:

إن جميع العقول المنقرضة في الوحل والركام

إلا عقل الثورة فهو الشموخ

هو امتداد التاريخ

هو تواصل فعل حركة التاريخ

وبوقع أقدام أبنائك، وأحذيتهم الثقيلة تُصهر كل الأعاصير الهوجاء

وتحطم كل الجدران، وكل مواثيق الخيانة والتآمر

الثورة الفلسطينية هي لغة الشمس.

منطق التاريخ

وأنا أستعرض ما كتبه خطاب من كلمات ومقالات، وما أذاعه من افتتاحيات وجدت روحا ثورية أصيلة، وثقافة المقاومة والنضال في أجلى صورها، فالمناضل الثائر، الشاب مؤمن بالمقاومة، ومسكون شأن رفاقه في تلك الفترة بان تحرير فلسطين يمر عبر ماسورة البندقية.

هناك لغة مشتركة واحدة بين ذلك الجيل من المدرسين الذين تركوا ساحات المدارس ومنصات الطابور الصباحي، وساحات الفصول وانطلقوا إلى الخنادق والدشم والجبال والكهوف والصخور.

تركوا الطباشير والدفاتر والأقلام الحمراء، وحملوا الرشاش، مثل جيله من المعلمين الذين التحقوا بالثورة وآمنوا إيمانا مطلقا بحتمية النضال وانتصار الشعب، انه من تلك الصفوة من الرجال الذين تنحني هاماتنا لتاريخهم ومواقفهم وشجاعتهم.

الأستاذ صلاح خلف مدرس اللغة العربية

الأستاذ خليل الوزير مدرس الجغرافيا

الأستاذ خطاب أبو الرب مدرس اللغة العربية

الأستاذ غسان كنفاني مدرس التربية الفنية

وهناك بالتأكيد غيرهم. لكن قاموس كل من هؤلاء المعلمين الثوار يؤكد أن نفوسهم النظيفة، وقلوبهم الشجاعة، وضمائرهم الحية كانت تؤمن بشيئين ثابتين:

بضرورة القتال مهما كان تباين معطيات القوة، وحتمية الانتصار كمنطق تاريخي حقيقي.

والدليل على ذلك أن خطاب لم يبكِ في حياته إلا ثلاث مرات: عندما توفي والده، وعندما استشهد أبو جهاد وعندما استشهد أبو إياد وأبو الهول.

بانوراما حياة مناضل حقيقي

ولد عزت فريد أبو الرب الشهير بلقب خطاب في بلدة قباطية في 1939/8/18، وتخرج من مدرسة جنين الثانوية عام 1956، والتحق بالسلك التعليمي في الأردن حيث عمل مدرسا ولكنه لم يلبث أن درس في الجامعة اللبنانية قسم العلوم السياسية، وقد التحق بحركة فتح عام 1967، وكان كادرا مسؤولا أشرف على توعية وتوجيه مقاتلي الثورة الفلسطينية عبر كونه مفوضا لجهاز التعبئة والتوجيه السياسي، ومشرفا

على مجلة "صوت العاصفة" ومسؤولا عن مدرسة الكادر، وكان عضوا في المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية، وعضوا في المجلس الوطني الفلسطيني، وعضوا في المجلس الثوري لحركة فتح.

وعمل مديرا لمكتب المنظمة في الأردن، وسفيرا لفلسطين في رومانيا، وسفيرا لفلسطين في الجماهيرية العربية الليبية، وقد صدر له كتاب "أيام فلسطينية" عام 1982، وله عشرات المقالات والدراسات والأبحاث التي نشرت في العديد من الدوريات الفلسطينية واللبنانية واليمنية والليبية.

وله العديد من البرامج الإذاعية في إذاعتي "فلسطين" في بيروت والقاهرة، إضافة إلى إشرافه على إذاعة "فلسطين" في القاهرة. وقد استشهد يوم 1993/5/25، أثناء وجوده في بوخارست.

لمسات إنسانية وذكريات عائلية

تقول السيدة هند "أم حسام" في مقدمة "كتابه كلمات مضيئة":

لم تعد الحياة زاهية بألوانها بعد رحيلك أيها الحبيب، لم تعد للجبال قمم، من بعدك أيها المناضل الصلب الطيب، لم تغادرك عزتك وشهامتك يوما.

لم تخطب ود أحد إلا ود فلسطين.

تخطفك الموت الغادر، عدت إلى الديار المقدسة بروحك الطاهرة عفيفا ناصع البياض.

كنت الشهيد والشاهد، الشهيد الذي قدم عصارة فكره ودمه وعمره فداء للوطن والشاهد الذي عاش المعاناة والمؤامرات.

رحلت وما رحلت.

رحلت عنا بجسدك ولكنك باقٍ فينا، بنبضنا، بأحاسيسنا، بسلوكنا، بقيمنا، باق في ضمير كل المناضلين الذين أحبوا فيك الرجولة عندما يُفتقد الرجال، أحبوا فيك نزاهة الثوري وإنسانية المناضل وعطائه وتواضعه وأكبروا فيك نسيان الذات في سبيل الآخرين.

قصة خلافه مع الرئيس أبو عمار

هناك محطتين هامتين في حياة خطاب، فعندما كان ممثلا لمنظمة التحرير في رومانيا اشتهر بنشاطاته وفعالياته، وقدراته على أن يجمع الجالية الفلسطينية ويوحد بينها، وأن يجعلها على تواصل دائم مع الثورة الفلسطينية وقياداتها.

وعندما جاء وفد فلسطيني لمقابلة وفد إسرائيلي برعاية تشاوشسكو، الرئيس الروماني في تلك الفترة لإجراء محادثات لها طابع سياسي وسلمي، اعترض خطاب على مجيء الوفد عندما علم بأن الوفدين سيقومان بمفاوضات تحمل طابع البحث عن السلام أو التطبيع بصورة من الصور، وكان على رأس الوفد الفلسطيني عبد الرزاق اليحيى، وكان لديه موافقة من الرئيس أبو عمار.

وقد رفض خطاب أن ينفذ أوامر أبو عمار، واعترض بقوة على هذه الخطوة، ما جعل الرئيس أبو عمار يستدعيه إلى تونس.

عاد خطاب إلى تونس مغضوبا عليه، وكان متأثرا ولكن بعد ستة شهور اجتمعت القيادة كلها وقررت تعيينه سفيرا لفلسطين في ليبيا، خاصة وأن ليبيا كانت قاعدة للثورة الفلسطينية العسكرية وللقوات

المقاتلة والبحرية والقوات الجوية كما كان هناك العديد من الفصائل الفلسطينية التي كان القذافي يحتضنها جميعا، وكانت الجالية الفلسطينية في ليبيا تشكل أكبر جالية عربية وغير عربية في ليبيا، ومعظم هؤلاء الفلسطينيين كانوا من قطاع غزة. ولذلك فإن اختيار خطاب تم عن دراية وخبرة وثقة بأنهم في حاجة إلى رجل يتمتع بالروح الثورية والنزاهة، والقدرة لأنه سيكون في منطقة مهمة جدا بالنسبة للثورة الفلسطينية.

وقد قام في تلك الفترة بانجازات رائعة، فقد وحد جميع الفصائل، وتواصل مع القيادة الليبية في كل مواقعها واستطاع أن يؤمن أكثر من 2 مليون دولار سنويا للطلاب الفلسطينيين، كما استطاع أن يؤمن مئات المنح للطلبة الفلسطينيين.

وأذكر بأنه في إحدى المؤتمرات كان الرئيس القذافي يستقبل رؤساء الوفود فلما هبطت طائرة الرئيس عرفات أرسل القذافي أحد مساعديه ليستقبل أبو عمار، فانتفض خطاب وأسرع إلى الطائرة وأغلق بابها وقال للمندوب: إذا لم يأتِ الأخ القائد بنفسه لاستقبال أبو عمار فإن الطائرة ستعود من حيث أتت، وكان أبو عمار يحاول أن يلطف الموقف ويحاول أن يجعل الحادثة تمر بسلام، ولكن خطاب أصر وبالفعل جاء معمر القذافي واستقبل أبو عمار، إنه موقف عزة لثائر حقيقي.

ذكريات لا تنسى

ولا أستطيع أن أنسى ذلك الموقف التاريخي المؤلم الذي حدث وسبب الكثير من مشاعر الألم والانفعال للشعب الفلسطيني والعربي، فعندما سقطت طائرة الرئيس أبو عمار في الصحراء الليبية كان خطاب في عمان وسمع الأخبار عبر إحدى النشرات التلفزيونية، أسرع خطاب إلى المطار وقال لا بد أن أكون مع الرئيس في مثل هذه الظروف، ولا بد أن نعثر على طائرته إن شاء الله. وبالفعل ذهب خطاب وكل هيئة وسلطات ورجالات ليبيا وعلى رأسهم القائد معمر القذافي لمحاولة الاطمئنان على الرئيس بعد أن تم الاهتداء إلى الموقع الذي سقطت فيه الطائرة بمساعدة طائرات الايواكس الأمريكية وبعض الطائرات الفرنسية.

المشهد الآن على النحو الآتي: الرئيس أبو عمار في حالة إعياء شديد ولكنه بخير. وكانت سهى قد أخذت أول طائرة لتكون بقربه، وبالفعل، وصلت إليه في المستشفى ولم تكن في حالة نفسية تسمح لها بالسيطرة على دموعها. وكانت في حالة عصبية شديدة جعلت معمر القذافي يتساءل من تكون هذه الصبية، فحاول خطاب أن يفهمه أنها إحدى قريباته، ولكن أبو عمار بادر بكل عفوية وقال: إنها زوجتي.

أخي خطاب..

لا شك أن تاريخك يشكل صفحة هامة من تاريخ الثورة الفلسطينية، ولذلك فمن حق الأجيال علينا أن تطلع وان تتعلم من هذه الروح الثورية العظيمة التي تمثلها بمسلكياتك الرفيعة وإصرارك على أن البندقية المسيسة هي التي تصنع النصر. إني على ثقة أن روحك لا تزال معنا، وانك لو قدر لك أن تقرأ هذه الصفحات فإنها ستصادف أحساسا بالراحة لديك وتقديرا لدور الكلمة التي كنت تحارب بها، كما كنت تحارب بالرصاصة، فنحن من سيرتك نستلهم خطواتنا في رسالتنا إلى أبناء هذا الجيل وجميع الأجيال القادمة لتشرق شمس الحرية في كل نفس ولتظل فلسطين هي لغة الشمس على حد تعبيرك الرائع.

(2013/6/1)

إبراهيم مصطفى البارود

سددت فواتيري كاملة، وأناضل بكل قطرة من دمي في سبيل إخواني الأسرى.

*** أطلقت الأم زغرودة النصر والفرح عندما نطق القاضي بسجن ابنها سبعة وعشرين عاما.. إنها "أم البطل" الذي يدخل المعتقل مرفوع الرأس.. علماً على الشرف والفداء.**

في المعتقل دخلتُ مدرسة الفكر والحياة والعلم

وتتلمذتُ على ثلاثة من أساتذتي، قادة النضال: الدكتور فتحي الشقاقي، والدكتور إبراهيم المقادمة، والمهندس إسماعيل أبو شنب.

منعتني إدارة السجن من الالتحاق بالجامعة، فأبحرت بقاربي في محيط اللغة العربية، درست القرآن الكريم، والسُّنة النبوية، وأمهات الكتب والمراجع مثل: مغني اللبيب، وشذور الذهب، وكتاب هشام الأنصاري قطر الندى وبل الصدى.

ودعني رفاقي من مختلف الفصائل بالدموع والأحضان.. فما أعجب رحلة الاعتقال، نستقبلها بالدموع والألم؛ ونغادرها بالدموع وبمزيد من الألم..

في مطلعها نغادر أحباباً، وفي نهايتها نغادر أحباباً.

لقاء عبر الهاتف

لم تكن الأوراق التي اطلعت عليها من خلال الانترنت لتشفي غليلي، كان لا بد أن التقي مع أم البطل الحاجة أم إبراهيم وكان لا بد أن أرى هذه السيدة العظيمة التي أطلق عليها "أم الاسرى" وأستمع منها لأعرف مشاعرها بعد أن تم إطلاق سراح ابنها الأسير بعد سبعة وعشرين عاما.

كان صوتها مليئا بالفرح، مليئا بالفخر والزهو، مليئا بمشاعر الكبرياء والاعتزاز، ورغم أنها دقت أبواب السبعين إلا أن صوتها كان يتفجر حيوية وشبابا.

إن لحظات الفرح والإحساس بالانتصار تمحو كل مرارة وألم الفراق والمعاناة، مع أعدل الطبيعة وما أنصفها، أنها بقدر ما تسقينا كؤوس المرارة والشقاء والحسرة عند مفارقتنا لأحبابنا وهم يُرَحَلون وراء الشمس؛ فإنها تسقينا كؤوس النصر والنشوة والفرحة عندما نلتقيهم، وقد لا يكون هناك تعادل في

مقاييس الزمن، فشقاء سبعة وعشرون عاما لا يوازي فرحة اللقاء التي لا تستغرق طويلا من عمر الزمن ولكن متى كان الزمن يقاس بالثواني والساعات؟ إنه يقاس بالمشاعر والأحاسيس.

قلت لأم إبراهيم: أنتِ رمز للنضال الفلسطيني لأنكِ أنجبت هذا الفارس البطل، نحن فخورون بك لأنك كنت بمقام الأم لجميع الأسرى، لقد أديتِ رسالة عظيمة نحو الوطن، كما أن هذا الفارس الشجاع قدم نموذجا رائعا للوطنية الصادقة.

إنني أشعر بالضعف نحو الأسرى وأشعر بصدق بعقدة الذنب والتقصير نحو هؤلاء الأبطال لأن مرارة الأسر وقسوة الاعتقال وتجربة التحقيق والتعذيب تمثل جيلا كاملا من الألم والمعاناة، وعندما أكرر في مقالاتي ومداخلاتي وكتبي التعاطف مع الأسرى فما ذلك إلا لإحساسي الدائم بهم ولرغبتي الحقيقية في أن أقدم ولو بسمة أو دمعة أو كلمة تشد أزر هؤلاء الذين يعيشون وراء الشمس في ظلام الاعتقال.

وقال البطل المحرر

في تجربة الاعتقال يستوقفني أن ثلاثة من رموز النضال الفلسطيني كانوا من زملاء إبراهيم بارود في الاعتقال، وهم الدكتور فتحي الشقاقي والدكتور إبراهيم المقادمة والمهندس إسماعيل أبو شنب.

ترى كيف تتعامل هذه الرموز الوطنية المثقفة الملتزمة مع هؤلاء الشباب الذين ما زالوا في أول معتركهم مع الحياة.

قال إبراهيم: كان الدكتور الشقاقي شخصية رائعة لا يمكن لإنسان أن يلتقي به أن يجالسه إلا ويتأثر به، إنه إنسان بكل بساطة من القادة الرواد، رجل معطاء، رجل فكر وعلم وثقافة وموقف.

ما أن أنهيت فترة التحقيق حتى التقيت به، فوجدته بالفعل مميزٌ عن الآخرين، وكانت مقدرتي باللغة العبرية تسمح لي بان أتبادل معه بعض المعلومات وأن أنقل إليه خبراتي البسيطة وكنت لا أكاد أصدق نفسي فكيف أقف من هذا المعلم الكبير موقف المعلم، ولكنه كان متواضعا، كان يهمه أن يلم بالحروف العبرية وأن يحسن مفرداته اللغوية ويضيف إليها كل يوم.

لقد كان الدكتور إنسانا مجتهدا يقرأ ويتعلم وفي نفس الوقت يعلم الآخرين ويغرس في نفوسهم مبادئ الحق والخير والجمال ويعلمهم كيف يستفيدون من كل ثانية من وقتهم ذلك لان تعليمات التنظيم كانت تزن السجين بميزانٍ دقيق وهو قدرته على الاستفادة من وقته واستغلاله في العلم، وكان الدكتور الشقاقي يؤكد لنا أن معركتنا مع العدو ليست معركة صواريخ ودبابات، وإنما هي معركة علم ورغبة في التحدي وقدرة على قهر عوامل الضعف والهزيمة، فللمعركة أيضا جانب نفسي.

رحم الله الدكتور الشقاقي الذي رحل في موكب الخلود عندما ذهب إلى ليبيا ليحاول إقناع القذافي بعدم طرد الفلسطينيين من ليبيا. فقد كان العقيد في إحدى نزواته قد قرر طرد جميع الفلسطينيين من ليبيا وقال لهم: بعد أوسلو يمكنكم أن تعودوا إلى وطنكم، وتركهم على الحدود الليبية- المصرية في العراء والجوع والشمس بدون أي رحمة فأثر هذا الموقف في الدكتور الشقاقي وقابل العقيد ومن ثمَ أخذ الطائرة إلى مالطا وهناك تم استهدافه ومن ثم لحق بالرفيق الأعلى يوم 1995/10/26.

أما إبراهيم المقادمة فقد كان من قيادات حماس وكان رفيقا للشيخ أحمد ياسين، ومن القيادات المقربة إليه، وقد تم اغتياله بوساطة الطيران الإسرائيلي يوم 2003/3/8 عندما كان في شارع اللبابيدي.

ويقول إبراهيم: إن له ذكريات ومواقف مع هذا القائد البطل الذي كان يشاركه في قراءاته وفي مناقشاته ويساهم في توسيع افقه وتثبيت معلوماته وإثرائها.

وأما إسماعيل أبو شنب كان مهندسا وكان من المقربين إلى الشيخ أحمد ياسين، وكانت تربطه بالقائد صلاح شحادة صلات قوية وقد استشهد المهندس إسماعيل وزفته السماء إلى جنان الخلد شهيدا ومناضلا ليلحق برفاقه يوم 2003/8/21.

ما هي قراءاتك في السجن؟

كانت القراءة والثقافة هي الزاد الفكري وهي السلوى والتسلية بل والشغل الشاغل لكل إنسان مثقف معتقل وراء الأسوار يعرف أن الحياة معركة ويؤمن أن البندقية المسيسة هي التي تنتصر على حد تعبير المناضل عزت أبو الرب "الخطاب".

والحقيقة إنني كنت عاشقا ولا أزال للغة العربية، ولذلك حرصت على إتقانها وبذلك جهودا في قراءة أمهات الكتب والمراجع وخاصة كتاب نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب، وكتاب هشام الأنصاري قطر الندى وبل الصدى وكتاب شذور الذهب وكتاب مغني اللبيب.

وفي هذا المجال يهمني أن ابعث رسالة إلى شعبنا وشبابنا وأدعوهم إلى الاعتماد أولا وأخيرا على أنفسهم وعليهم أن يتثقفوا بالعلم، فلا شيء يقربنا من أهدافنا إلا العلم والمعرفة.

الأسرى قضية حياتي

ويقول إبراهيم بارود: إن قضية الأسرى كانت ولا تزال تشغل بال كل من له صلة بالحركة الوطنية والسياسية بل إنها قضية الشعب الفلسطيني بأسره. ولدي اعتقاد هو صدى حقيقي لما تعتقده الحركة الأسيرة بكل كوادرها وتوجهاتها أن الاهتمام بقضية الأسرى يجب أن يتم على ثلاث مستويات:

المستوى الأول: يشمل جماهير الشعب الفلسطيني في كل مناطق وجوده، ويشمل المؤسسات والجامعات والمدارس والوزارات والهيئات وكل مفردات الشعب الفلسطيني وكل كوادره بل ويشمل ذلك الشعب الفلسطيني في المخيمات وفي الشتات وفي كل أنحاء العالم. هذه الحركة الجماهيرية يجب أن تنتظم وان تشكل رافدا من روافد المقاومة والضغط على العدو ليطلق سراح الأسرى. إن حركة الجماهير هذه لن تؤدي بالضرورة إلى الإفراج عن الأسرى؛ ولكنها بالتأكيد تساهم في رفع معنوياتهم وتحسين ظروفهم وتجعل إحساسهم بان تضحياتهم لها من يقدرها ولا شك أن رفع معنويات الأسير وإكسابه الإحساس بأن الجماهير معه له تأثير كبير على نفسيته.

أما المستوى الثاني: فيكون من مسؤولية المستوى السياسي الذي يجب عليه أن يضاعف من جهوده واهتمامه بقضية الأسرى وأقوال صادقا إن الشباب لديهم إحساس بان المستوى السياسي لا يقوم بما عليه من واجبات مع تقديرنا الكامل لجهود السيد الرئيس أبو مازن، فنحن نثمن إخلاصه واهتمامه الشديد بقضية الأسرى ونحن نقول له إننا معه ونؤيده كل التأييد في توجهاته السياسية حيث يرفض العودة إلى المفاوضات إلا بعد إطلاق سراح الأسرى. والحقيقة إن السيد الرئيس يبذل جهودا مضاعفة لإطلاق سراح الأسرى لكن هذه الجهود لكي تثمر يجب أن نقف جميعا وراء الرئيس وأن نحاول بكل ما نستطيع أن نؤكد له أن لا تراجع عن هذه السياسة المنصفة الخاصة بالأسرى.

ويقول إبراهيم: إن أسرى ما قبل أوسلو هم في الواقع مسؤولية إسرائيل التي يجب أن تفرج عنهم ولكن الأسرى الذين وقعوا بعد ذلك في الاعتقال فهم مسؤولية السلطة ومسؤولية أنفسهم. ولا أتصور كيف يجوز وكيف يحتجز 104 من المعتقلين الفلسطينيين كل هذه السنوات بعد توقيع أوسلو وأن الإقرار أو الصمت عن هذه القضية غير مفهوم وغير مقبول.

أما المستوى الثالث: فيتمثل في حركة المقاومة التي يجب أن توحد كلمتها وأن ترسم الخطط المناسبة التي تؤمن إطلاق سراح الأسرى.

إيقاع الحركة الأسيرة بعد وقبل أوسلو

ويقول أبو مصطفى: إن الحركة الأسيرة كانت قبل توقيع اتفاقية أوسلو في سبتمبر عام 1993 كان يسودها الانضباط، فكل ثانية في اليوم مكرسة للعمل والإنتاج، ولتثقيف الذات، وعقد المحاضرات، والمناقشات، وممارسة الرياضة وكل ألوان الحياة الراقية التي تسمو بهؤلاء الأبطال الذين اعتقلوا من أجل غايات نبيلة. وكان الانضباط صورة رائعة للنظام والعمل والإنتاج، فالتنظيم يراقب كل شيء ويشرف على كل شيء، ولكن بعد توقيع اتفاقيات أوسلو بدا أن هناك نوع من التفتت والتراخي، وعدم الانضباط بل إننا شعرنا أن بعض الزملاء بدؤوا يراهنون على اتفاقيات أوسلو، وأنهم على وشك أن يعودوا إلى أهلهم فأخذوا يرتبون أنفسهم ويجمعون حاجاتهم، وينسقون مواقفهم على هذا الأساس. وهو أمر تداركه القادة ولعلهم يستطيعون معالجته بعد أن تبين إن معظم نصوص أوسلو مجرد سراب.

إبراهيم البارود وأمه

ثنائية الأم والابن التي تصنع أنموذجا فريدا في ملفات النضال الفلسطيني، هذا التكامل الذي يذكرنا بالمقولة الحكيمة، ذاك الشبل من ذاك الأسد، يتناغم بصورة أخرى إذ يغدو هذا الشبل من تلك اللبؤة.. تلك اللبؤة الجسورة القوية الصامدة التي أرضعت شبلها لبن الصلابة والقوة والرجولة.

إن الأمومة كما يقول العقاد أكثر دلالة على هوية الشخصية التي يحملها الأبناء، فالأم تؤثر بصورة أكثر فاعلية وأكثر أهمية من شخصية الأب لأن الأم لها مساحة تأثير في أبنائها اكبر وأعظم وأقوى من تأثير الرجل.

ألم يقل حافظ إبراهيم:

"الأم مدرسة إذا أعددتها

أعددت شعبا طيب الأعراقِ

الأم روض إن تعهده الحياة

بالري أورق أيما إيراقِ"

في مدرسة أم "إبراهيم مصطفى أحمد بارود" نشأ وترعرع هذا الفارس الفلسطيني المقاتل، شرب من لبن أمه رحيق الجرأة والشجاعة وتنسم من عطر جباليا مشاعر الحب والانتماء وتغذى من برتقال بيارات فلسطين التي امتزجت بدمه فأينعت حبا وانتماءً وتضحية والتزاما.

كان إبراهيم خلف قضبان السجن يشكل حالة نضال وإشعاع فلسطيني تهدي التاريخ والحق والإنسانية نورا وضاءً وتعطر صفحات النضال بالمواقف التي تثري الوجود الإنساني وتجعل للحضارة

مذاقا، وللثقافة حضوران وللرجولة فصلا وللفداء منارة وللعزة والكرامة هامشا ولفلسطين تاريخا وحضارة وموقفا.

يقول القائد الفرنسي الداهية نابليون بونابرت: إن الأم التي تهز العالم بيمينها تستطيع أن تهز العالم بشمالها.

وابراهيم وأمه أنموذج متكامل رائع لهذه البطولة الرائعة وتجسيد حقيقي وتطبيق عملي لمفهومها.

كأنه عبد الله الزبير وكأنها أسماء

وعندما نتأمل مسيرة الحاجة أم إبراهيم وصلابة معدنها وشموخها وكبريائها وتحديها للمحتل على امتداد سبعة وعشرين عاما نشعر أننا أمام سيدة قدت من الصخر فهي في صلابة الماس وقوته وهي التي من فكت على امتداد كل هذه الأعوام تشارك في كل الفعاليات التي تنادي بإطلاق سراح الأسرى، تنتقل من مدينة إلى مدينة ومن شارع إلى شارع ومن موقع إلى موقع ومن تجمع إنساني إلى تجمع إنساني آخر، بل إنها تنتقل من مدينة إلى أخرى خارج الوطن الفلسطيني وهاجسها الوحيد أن تعلن عن مدى الظلم الذي يتعرض له أبناء فلسطين وأشبالها ورجالها خلف أسوار السجون.

أم إبراهيم حالة خاصة. فهي تطلق زغرودة الانتصار والأغاني والأهازيج الفلسطينية في ساحة المحكمة عندما تسمع نطق القاضي بسجن ابنها سبعة وعشرين عاما، لم تسقط مغشيا عليها ولم تنحدر دمعة من عينيها، ولم تبكِ، ولم تولول، ولم تهتف ضد القاضي، ولم توجه أي تذمر، بل شقت زغاريدها فضاء المحكمة معلنة أن هنا بطل وأن هنا أمة تريد الحياة وأن شعب فلسطين قادر دائما على أن يعطي لوطنه هذه النماذج الرائعة في الفداء والاستبسال.

ومن صور عظمتها وشموخها أنهم عندما اشترطوا عليها لكي تتم زيارة ابنها أن يقوموا بتفتيشها بصورة كلية فرفضت ذلك وفضلت أن تعود دون أن ترى فلذة كبدها، إن الإحساس بالكرامة والتحدي والوطنية الصادقة جعلها تهزم جلادها ولا تستجيب لشروطه اللاإنسانية.

تلكم هي الحاجة أم إبراهيم فكأنها أسماء بنت أبي بكر.

أما إبراهيم فهو صورة أخرى للبطولة والفداء، كان في الثالثة والعشرين من عمره عندما ألقت سلطات الاحتلال القبض عليه وساقته إلى السجن. وهناك أمضى ثلاثة شهور في التحقيق وذاق فيها كل ألوان العذاب، ولكنه ظل صابرا شجاعا صامدا أمام طغيان الجلادين.

وقد تفرغ إبراهيم للدراسة فحصل على شهادة إنهاء الدراسة الثانوية، وحاول إتمام تعليمه الجامعي ولكنهم رفضوا أن يسمحوا له بذلك، فانكب على القراءة الحرة ودراسة القرآن وثقف نفسه بنفسه واستفاد من أساتذته الدكتور فتحي الشقاقي وإبراهيم المقادمة وإسماعيل أبو شنب، وهؤلاء الثلاثة من طليعة الشعب الفلسطيني ومن المثقفين والمناضلين والأعلام الذين قادوا التيارات الإسلامية وعبأوا الشباب وطنيا وأخلاقيا وغرسوا في نفوسهم قيم الشجاعة والبطولة والتضحية والفداء.

إن إبراهيم بارود يذكرنا بعبد الله بن الزبير كما تذكرنا أم إبراهيم بالسيدة أسماء بنت أبي بكر عندما جاء ابنها يسألها هل يقاوم الحجاج والأمويين أم أنه من الأفضل أن يستسلم، فدعته أمه للمقاومة فقال: ولكني أخشى أن يمثلوا بي.

فقالت له: وهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها.

فلما حارب عبد الله بن الزبير الحجاج وانهزم أخذ الحجاج جثته وعلقها على أبواب المدينة وأقسم الحجاج أنه لن ينزل هذه الجثة إلا إذا جاءت أسماء وبذلت له الرجاء، ولكنها لم تفعل ووقفت تحت جثمان ابنها المشبوح وقالت: أما آن لهذا الفارس أن يترجل.

أن بطولة أم إبراهيم وشجاعة وصلابة إبراهيم تذكرنا بهذه النسمات العطرية من تاريخنا، فما أروع أن تجتمع البطولة والشجاعة والفروسية في هذا الثنائي الخالد (الأم والابن).

لحظات وداع حميمة

لقد تم الإفراج عني يوم 4/8 حيث كنت معتقلا في سجن رامون- النقب. وكان المعتاد أن يتم نقل المفرج عنهم الى عسقلان ومن ثم ترحيلهم عبر ايرز الى قطاع غزة، وعلى هذا الأساس كان الشباب ينظمون حفلا وداعيا لي على أساس انه سيتم نقلي صباح اليوم التالي الذي يصادف يوم أحد، ولكن على غير العادة تقرر نقلي من رامون مباشرة إلى عسقلان عبر القطار ولهذا لم يقم الاحتفال لي على نحو ما كان يخطط الرفاق.

ومع ذلك فقد كان وداع الشباب لي وداعا حارا أثر في نفسي تأثيرا شديدا، فقد ودعوني بالقبلات والدموع والأحضان وشعرت شعورا جارفا بالحزن والأسرى وكأن موجة غمرتني بالانفعال والتأثر، فقد عشت مع هؤلاء الرفاق سنوات طويلة، عشت معهم سنوات الكدح والكد والنضال والمواجهة وتشربت معهم لحظات الألم وشاركتهم الآمال والأفراح وتتبعت معهم إيقاع الزمن وأخبار الأهل وسهرت معهم الليالي الطويلة نناقش ونحلل ونتأمل في أشجان وشؤون وطننا. وكنا نتقاسم الهموم والذكريات فأطلعهم على دخيلة نفسي واشترك معهم في مشاعرهم وتجاربهم وحياتهم.

كانوا أقرب إليّ من أهلي، كانوا بعض نفسي، وكان سلوكهم معي يؤكد المقولة الخالدة أن القرابة تحتاج إلى مودة، لكن الصداقة لا تحتاج إلى قرابة، وكنت أستذكر معهم ما يقوله شوقي العظيم إن المصائب يجمعن المصابين.

ولو أدركت القيادات في شتى الفصائل حقيقة مشاعر الشباب الأسرى المناضلين وكيفية تعاملهم مع بعضهم بعضا بحيث تسودهم روح المودة والإخاء والمشاركة الوجدانية لكان جديرا بهم أن يقتدوا بهؤلاء الأسرى وأن يعرفوا كيف يتعاملون مع رفاقهم وان اختلفت الرؤيا ولم تختلف الأهداف.

* * *

ولي أن أقول إن الحركة الأسيرة تمثل أنموذجا وطنيا ناجحا يجب الاقتداء به في التعامل مع كل المعطيات، وأنا بطبيعتي أكره المزايدة ولكني أيضا أكره أن نقف عاجزين أمام هذا التشرذم في الصف الفلسطيني وهذا الانقسام الذي لا مبرر له، أن قلوبنا تخفق بالحب والاحترام للحركة الأسيرة ولإيقاعها الرائع في التعامل مع القضايا الوطنية على أساس الحب والتعاون وقبول الآخر والاحتكام إلى روح الديمقراطية وجوهرها والتي تقوم على أساس أن أغلبية واحد في المائة ترجح كفة هذا الفريق أو ذاك وان الديمقراطية مطلوبة إلى حد كبير على مستوى الانتخاب ولكن بعد أن يتم انتخاب القائد أو المسؤول فإن مبدأ الالتزام يجب أن يُعمل به إلى حد الدكتاتورية.

وفي الواقع فان هذا الشاب الرائع يحق لي أن أطلق عليه مانديلا فلسطين، بل إنه بقي وراء القضبان في السجن مدة تفوق أو تقترب من الفترة التي قضاها نلسون مانديلا وهي ثمانية وعشرون عاما، وإني أشد على يده وأتمنى له حياة سعيدة آملا أن يجد رفيقة دربه وأن يملأ حياة والدته وأسرته وأبناء جباليا البلدة الرياضية التي أنجبت هؤلاء الأبطال الرياضيين.

(2013/6/8)

صهباء البربري

ملفات حياتها تاريخ الثورة الفلسطينية "من الجلدة إلى الجلدة"

حاملة "الجمرة" رفيقة عمر الشاعر معين بسيسو، زارته في سجن الواحات، خطبها وتزوجها بعد عام وشكّلا معاً فصلاً رائعاً في تاريخ النضال الفلسطيني.

أول فلسطينية دخلت سجون مصر، وعانت من فرعون القمع حمزة البسيوني

إنها جميلة بوحريد فلسطين، جامعة ذات ثقافة ووعي وصلابة في قوة الماس ونقائه

سجنني عبد الناصر ولكنني أكن له كل الاحترام والحب، ولا أزال اعلق صورته في غرفتي

وأحملها من بلد إلى بلد وحتى أولادي يحبونه.

شاركت في مؤتمر الطلاب العالمي في وارسو..

كنا ستة طلاب وكان وفد إسرائيل 120 طالباً ولكننا رفعنا علم فلسطين ونحن نهتف لها

كنت طالبة في جامعة القاهرة، كلية الآداب قسم الاجتماع، كان ذلك في عام 1954 عندما دعيت لمهرجان الشباب والصداقة، وقد تم اختياري لتمثيل فلسطين في وارسو، كنا خمسة طلاب وطالبة واحدة، وكان الوفد برئاسة ياسر عرفات وعضوية الدكتور شوكت الكيلاني وثلاثة آخرين بالإضافة إلى الطالبة صهباء البربري.

سافرنا من الإسكندرية بالباخرة أرمينيا، وكان معنا الوفود اللبنانية والأردنية والسورية والمصرية ووفود أخرى. كان معنا وثيقة حكومة عموم فلسطين، ولكنها لم تكن تشفع لنا في عبور الحدود، فكنا نتصرف بمساعدة الوفد المصري لان أحدا لم يكن يعرف فلسطين في ذلك الوقت من عام 1956.

وعندما وصلنا إلى وارسو أقمنا في منزل الطلبة، وتعرفت على سليمان النجاب والشاعر ناظم حكمت، وشاركنا في المهرجان وأصبحت فلسطين عضوا كاملا في اتحاد الطلاب العالمي.

كنا نمشي في الاستعراض رافعين علم فلسطين، ستة طلاب يهتفون لفلسطين بينما الوفد الإسرائيلي كان 120 طالبا، ولأني لم أكن أحمل جواز سفر معترف به ضعت في الدول الاشتراكية واتصلت والدتي في ذلك الوقت عن طريق الهاتف بأبو عمار فتدخل ورجعت لأكمل دراستي ونشاطاتي في جامعة القاهرة.

وأذكر بهذه المناسبة أن الرئيس ياسر عرفات وكان يومها رئيسا لاتحاد طلبة فلسطين رأى في انعقاد المؤتمر العالمي للطلاب فرصة مواتية لخدمة القضية الفلسطينية وإعلاء كلمة فلسطين وتحقيق انجازات وطنية وجامعية على المستوى العالمي بحيث يشعر العالم بوجود فلسطين ووجود هذا الاتحاد الذي يعمل على خدمة الطلبة الفلسطينيين الذين يرفعون علم النضال من أجل هوية بلادهم وتحقيق النصر لها.

ومن المعروف عن ياسر عرفات حتى وهو في سنوات صباه وشبابه قدرته الرائعة على استغلال الفرص وتحقيق هامش كبير من الانتصارات الأدبية والوطنية في كل مناسبة من المناسبات، وفي هذا المهرجان عندما تقدم عرفات وبقية أفراد الوفد الفلسطيني وأصبحوا في مواجهة المنصة الرئيسية رفع عرفات لافتة كبيرة كتب عليها بحروف بارزة اسم فلسطين بالعربية والانجليزية.

وقد تأكد عبر نشاطات الوفد رغم كونه لا يتجاوز ستة أفراد حضورا رائعا للقضية الفلسطينية واعترافا باتحاد طلبة فلسطين كعضو كامل العضوية في الاتحاد العام العالمي لطلبة فلسطين.

ربي اغفر لهم فإنهم لا يعلمون

عام 1959 اندلعت مظاهرات ضد الشيوعيين في كل أنحاء العالم العربي ومنها قطاع غزة.

ذهبوا إلى مدرسة صلاح الدين ليبحثوا عن معين بسيسو ويحاولوا اعتقاله، ولكنهم لم يجدوه فتوجهوا إلى مدرسة الزيتون الإعدادية التي كان يعمل مديرا لها وقبضوا عليه وقالوا له: اهتف تسقط الشيوعية. فهتف: عاش الشعب الفلسطيني.

كنت اعمل مدرسة في مدرسة الزهراء الثانوية، وكانت عمتي يسرى البربري ناظرة المدرسة.

وفجأة أصبحت المدرسة تهوج وتموج بمظاهرة ضد صهباء البربري، إنهم يطالبون برأسي، مع أني لم أكن أذكر الشيوعية ولو بكلمة واحدة، كل ما هنالك كنت أربي الطالبات تربية ثقافية إنسانية، وطنية حتى يلتحمن بالأرض ويتعرفن على حقائق العالم، ويعشقن تراب فلسطين، وأغرس في نفوسهن مبادئ الوطنية الصادقة التي قوامها الإخلاص والانتماء والتضحية.

انقلبت جموع الطالبات إلى شياطين، ولم تنفع معهن شعر شوقي:

"قم للمعلم وفّه التبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا"

هاجمتني الطالبات ورفعن الأحذية في وجهي، قلت في نفسي، ربِّ اغفر لهم فإنهم لا يعلمون.

فلسطينية في السجن الحربي

بعد يومين من اندلاع المظاهرات فوجئت بزوار الفجر على حد تعبير محمد حسنين هيكل، كانوا يطرقون الباب بعنف وعدوانية كعادتهم.

- أين صهباء..؟

أخذوني من الدار للنار كما يقول المثل.. عمتي ألحقت بي حقيبة صغيرة فيها بعض الملابس، وكانت هذه "الشنطة" الصغيرة بمثابة كنز لي، عندما كنت في السجن الحربي العتيد في القاهرة، وبالمناسبة فإن السجن

الحربي أسوأ سجون مصر، وكثيرا ما نقرأ عنه في مذكرات الكُتّاب والمناضلين المصريين الذين يعتقلون فيه. وتواصل اعتقالي فيه ابتداء من 1959/4/24 حتى شهر حزيران عام 1960.

لم أكن قد تزوجت معين حتى تلك الفترة، كنت خطيبته، وكانت علب الملبس والحلويات والزينة قد تم إعدادها لإتمام الزفاف، كنت أنتظر الفرحة، وانتظر "عدلي" كما يقولون.

ولكن زوار "الفجر" أبوا أن تكتمل فرحتي، فقد اعتقلوني، واعتقلوا خطيبي الشاعر المناضل الثائر معين بسيسو.

كنت في السجن الحربي

وكان هو في سجن الواحات

وهكذا تأخر مشروع زواجي ثلاث سنوات

دراما السجن

في القاهرة تلقيت العلم وترعرعت على الثقافة والالتزام، وفتحت عيني على حقائق الحياة والناس، وزاملت الأدباء والشعراء والمناضلين، واستمعت إلى الشعر والفن والأدب وارتويت من نبع الثقافة والالتزام في مدرجات الجامعة، وفي منتديات الفكر والأدب ودور الصحف والمطابع والأندية، والأحزاب وحلقات الفكر والدراسة.

القاهرة، حبي الأول، حبي الخالد، مصدر إلهامي، هي التي صنعتني، لأكون صهباء الجديرة بمعين بسيسو، أعظم وأروع وأصدق شاعر فلسطيني في الستينيات وأنقى صوت وطني قومي بعد إبراهيم طوقان.

ولكن القاهرة نفسها هي التي تعتقلني وراء الشمس، في السجن الحربي، وتعتقل شاعري الكبير في سجن الواحات، إنها مفارقات القدر، التي تصنعها دراما الحياة، مصر عبد الناصر، تعتقل رمزين من رموز الوطنية من أبناء فلسطين.

من المؤكد أن الرئيس لم يكن يعرف، ولكن حمزة البسيوني، الطاغية الذي ترك بصماته في التعذيب على جيل بأسره، مثل عبد الرحمن الخميس، وصلاح عيسى، وأحمد بهاء الدين، فتحي غانم، محمود السعدني، بيرم التونسي، عبد الرحمن الأبنودي واحمد فؤاد نجم، وإحسان عبد القدوس، وإبراهيم جاد الله، ومصطفى أمين وعشرات من الأدباء والكُتّاب والفنيين، كلهم تلقوا ألوانا من العذاب والتنكيل على يد الطاغية حمزة البسيوني.

كانت الغرفة التي وضعتُ فيها تحتوي على سرير، وتقع تحتها غرفة تعذيب الوطنيين المصريين، الذين كنت أسمع آهاتهم وصرخاتهم وهم يتعرضون لأقسى صور العذاب، وحين يطلقون عليهم الكلاب لتنهش أجسادهم.

قال لي الضابط الأسمر، الذي كان له سن ذهبي:

- من أنت؟

- أنا معلمة، تخرجت من جامعة القاهرة.

- هل لك معارف هنا؟

- خطيبي الشاعر معين بسيسو.

- بعد لحظة صمت، نادى على العسكري وطلب منه أن يأخذ السرير وعاد يسأل:

- ماذا في هذه الشنطة؟

قلت في تحدٍّ:

- ماذا سيكون فيها.. بعض الملابس والأغراض الصغيرة.

ثم انفعلت وأنا أقول له:

- أنا معتقلة سياسية، ولي حقوقي، ولست مجرمة، أنا خريجة جامعة ومُدرسة، لست فتاة من الشارع، أرجوك نحن عرب، فلا تعاملني كما يعامل الفرنسيون جميلة بوحريد، المناضلة الجزائرية التي حلقوا لها شعرها.

- طلباتك يا آنسة ؟

- الضوء ما ينطفئ، والجريدة تصلني، وكتب كمان.

- قال في سخرية:

- جميل.. وإيه كما يا أختي.

في سجن القناطر أحلى الأوقات

أمضيت أربعة شهور في السجن الحربي، منها ثلاثة وأربعين يوما وأنا في حبس انفرادي، لم يكن صوتي يطلع، ولم أكن أرَ النور، وعندما زارتني أمي التقت بقائد السجن وقالت له:

- نحن عرب، أنا فلسطينية، وأنت مصري، لا تكونوا كالفرنسيين الذين يعتقلون الجزائريين.

بعدها رحلوني إلى سجن القناطر النسائي المعروف، وهناك تعرفت على أروع وأفضل سيدات وبنات مصر من الشمال إلى الجنوب، كانت معي

- انجي أفلاطون الرسامة المعروفة.
- والممثلة المعروفة محسنة توفيق.
- وثريا إبراهيم.
- وفاطمة زكي.
- وسعاد الطويل.
- وجين سويرس.
- وليلى الشال، زوجة المناضل رفعت سعيد.
- وايفون شتله.
- واجلال الشحمي.
- وليلى طاهر، آخت عبد الحكيم طاهر الذي كتب "أقدام عارية"، وقد أشار إلي في كتابه كأول بنت فلسطينية تعتقل في السجون المصرية.

جامعة بدون مكتب تنسيق

كان سجن القناطر بمثابة جامعة أخرى أدخلها بدون امتحانات وبدون توجيهي، وبدون معدل وبدون مكتب تنسيق، كنت في تلك الفترة أحظى برفقة مجموعة جميلة من السيدات المثقفات، اللواتي يجمعهن الإخلاص للمبدأ، والرؤيا الواضحة الصريحة للحياة والأحياء.

مجموعة نادرة مثقفة، في الأدب والفن والموسيقى والصحافة، والدين والمجتمع والفكر والتاريخ والعلم والسينما والموسيقى.

نخبة رائعة مختارة تعلمت منها فن الحياة، وأفدت منهن فائدة تفوق ما يمكن أن يتعلمه المرء من مئة كتاب، تعلمت الانجليزية على يد صديقتي جين سيداروس، علمتها التطريز الفلاحي الفلسطيني المعروف، وعلمتني لغة أبناء التايمز، كما أني كنت أعد لهن الوجبات الفلسطينية الشعبية المعروفة.

وفي هذه المرحلة كانت صهباء صورة صادقة للمربية الملتزمة، المحبة، كانت في الواقع بلسما لزميلاتها، ونسمة عذبة تسري في فضاء السجن وقد وصفت إحدى رفيقاتها صهباء بأنها كانت أكثر الرفيقات مودة وصداقة وتواصلا مع الجميع.

وعندما عادت إلى غزة بعد الإفراج عنها حاولت أن تستأنف حياتها ثانية، برغم نبذ الجيران لها وبرغم فصلها من عملها إلا ان ذلك لم يكسرها، وظلت تواجه بشجاعة مجتمعا يتربص بها، وأراد لفظها لكونها شابة مناضلة تخوض غمار السياسة بشجاعة وجرأة جنبا إلى جنب مع المناضلين وتعلن عن مبادئها الثورية بالسلوك والعمل لا بالمقولات والشعارات.

سنوات مجيدة

عندما وقعت حرب عام 1956 وشنت ثلاث دول الحرب على مصر وقطاع غزة، فيما يعرف بالعدوان الثلاثي، وقع قطاع غزة تحت الاحتلال في الساعات الأولى من الاجتياح، واستمر الاحتلال لقطاع غزة حوالي أربعة شهور حيث رحلت جحافل الجيش الإسرائيلي عن القطاع في 7 آذار/مارس عام 1957.

وفي أعقاب تحرير القطاع نظمت رابطة الطلاب الفلسطينيين في القاهرة رحلة الى قطاع غزة، وكنت من بين المشتركين في هذه الرحلة. وعندما وصلت الى القطاع بادرت الى زيارة عماتي وصديقاتي وأثناء هذه الزيارة اندلعت مظاهرات جماهيرية حاشدة تطالب بعودة الإدارة المصرية للقطاع

تقول صهباء: ولم أشاهد في حياتي مظاهرات بهذا الحجم وتلك القوة، كانت مظاهرات جماهيرية غاضبة تشق عنان السماء وتجتاح كل بقعة في القطاع من شماله في بيت حانون إلى جنوبه في رفح. وكان باص الرحلة الذي يقلنا يشق طريقا صعبة مهشمة محطمة ومليئة بالحفر والمخلفات التي تدل على آثار المعارك، ورغم ذلك كانت جماهير الشعب في كل مكان:

كل رجل..

وكل سيدة..

وكل طفل..

وكل عجوز..

وكل شاب وشيخ.. كانوا في الشارع يهتفون بعودة الإدارة المصرية، وقد أثرت حركة الجماهير وقوتها عبر هذا الحادث في وجداني وعواطفي وجعلتني أرتبط ببلدي، أرتبط بغزة أشد الارتباط حتى انني عندما تخرجت لم أطرق أبواب العمل في الخليج، وفضلت أن أرضى بالقليل لكي أظل قريبة من منابعي وجذوري وأبناء شعبي.

فلسطين على خطى الجزائر

وعندما عملت بالتدريس حاولت أن أكون بعيدة عن العمل السياسي، اتجهت إلى العمل الثقافي أكثر، وركزت على الثقافة الأدبية، والثقافة السياسية ورحت أبث الوعي في الطالبات، أقدم لهن قصص البطولة المرتبطة بثورة الجزائر في ذلك الوقت.

كنت أشرح لطالباتي الدور الوطني البطولي الذي قامت به جميلة وعزة وطالبات الثانوية الجزائريات، وكنت أبين لهن دور المرأة الجزائرية في الثورة، وكيف أن النسوة والمناضلات الجزائريات كن يقمن بدور فاعل في نقل السلاح ومساعدة الثوار، كانت هذه الدروس من وحي الواقع قصص بطولة حقيقية، لعلها كانت تفوق كل واقع وكل خيال.

وكثيرا ما تطرقت في دروسي ومحاضراتي للطالبات إلى حركات التحرر في العالم، وخاصة في كينيا وفيتنام وجنوب إفريقيا، كنت أريد أن افتح عقول الطالبات على العالم الحقيقي من حولنا، على الحياة نفسها وليس على صفحات الكتب فقط.

أخي أستاذي في النضال

أصبحت الثقافة شغلي الشاغل، وتركز وعيي واهتماماتي وقراءاتي في بناء شخصيتي الثورية، واتجهت بكليتي إلى الفكر الماركسي، وكان أستاذي في هذا الاتجاه أخي فاروق البرغوثي، وبعض الشباب المثقف الذين ساعدوني في فهم الاشتراكية والقومية العربية.

كانت الثقافة الجماهيرية الحرة التي كنت أنكب عليها تختلف كل الاختلاف عن الكتب التي كنا ندرسها في الجامعة، وبذلك زاد وعيي وتعمق إدراكي وتعرفت من خلال المبادئ الماركسية على العالم الآخر، وعلى العالم العربي والثقافة الأصيلة.

قرأت في تلك الفترة وتعرفت على معظم الأدباء المصريين والعرب، وقرأت بصفة خاصة للأدباء اللبنانيين والسوريين.

قرأت كثيرا.

قرأت الشعر الفصيح والشعر العامي، وقرأت لبدر شاكر السياب، ولنازك الملائكة، وأذكر أنني عندما حصلت على نسخة من ديوان "طفولة نهد" لنزار قباني أن أخي منعني من قراءته، رغم أنه كان مثقفا وكان له دور كبير في تربيتي الثقافية، وهذه عقدة الرجل الشرقي فحتى لو كان مثقفا فإنه يعاني من عقدة الرجل الشرقي في أعماقه، مهما قرأ ومهما تثقف ومهما سافر وتغرب.

وحاولت إسقاط ثقافتي على زميلاتي، حاولت أن اجعلهن مثقفات، ولكن قليلا منهن تجاوبن معي، وللحقيقة أقول أنني كنت أحظى باحترام وتقدير باعتباري مناضلة تقدمية، كما أن معظم القيادات الشيوعية في مختلف المواقع كانت موضع احترام وتقدير من الجماهير والطلاب والشباب في كافة الأندية

وعلى مختلف المستويات، وحتى قيادات الأخوان المسلمين الواعية كانت تنظر اليهم بإجلال وتقدير رغم الحساسية الدينية.

لقاء في سجن القناطر

حكايتي مع الشاعر معين بسيسو حكاية طويلة على رأي فريد الأطرش، ولكنها حكاية بسيطة تكاد تتطابق مع بيت شوقي: نظرة فابتسامة فموعد فلقاء.

لكن هذه النظرة لم تأتِ من فراغ، كنت اقرأ شعر معين وأشعر نحوه بالاعتزاز والتقدير، لان إيقاع شعره يمتاز بالصدق والثورة والعاطفة الوطنية الملتهبة.

كان اعتزازي شديدا وحبي كامنا لهذا الشاعر المثقف، ابن مدينتي مدينة الساحل والشواطئ والبحر والتاريخ، مدينة غزة هاشم التي نحبها بكل قطرة من دمائنا. كان رفيق دربي في المبادئ والرؤى السياسية والفكرية والنضالية، هل أقول انه كان أستاذي، إن ذلك يشرفني.

ولذلك عندما تقابلنا، والتقت العين بالعين تحركت كيمياء الحب وكان التواصل.

أذكر أنه في عام 1955 حدثت هبة جماهيرية عنيفة في قطاع غزة ضد مشروع توطين اللاجئين في سيناء، وكان معين بسيسو من قادة هذه المظاهرات، وكانت الانطلاقة من جباليا لأنه كان ناظر مدرسة فيها، وانطلقت التظاهرات عاصفة قوية ضد مشروع التوطين وضد مشروع جونسون وشارك في هذه التظاهرات أعضاء من الحزب الشيوعي الفلسطيني في غزة وعدد من المنظمات الوطنية الأخرى.

وقامت السلطات المصرية باعتقال عدد كبير من الشباب وساقتهم إلى زنازين التحقيق والتعذيب، وكان من هؤلاء معين بسيسو، وسمير البرقوني، وفتحي البلعاوي، وعبد الرحمن عوض الله، وغيرهم.

وعندما ذهبنا لزيارتهم قدمنا لهم بعض المساعدات العينية والمالية.

وأذكر أني لم أقل لوالدتي أنني في طريقي الى زيارة الرفاق، بل قلت له اني ذاهبة في رحلة.

وتقابلنا في المحطة الساعة السادسة صباحا.

وفي سجن القناطر التقيت لأول مرة بمعين وجها لوجه، وكان يبدو طويلا نحيلا، وسيما بالجلابية البيضاء وسألني:

- ماذا ستفعلين بعد الانتهاء من الدراسة الجامعية في القاهرة؟

فقلت له:

- سأعود إلى غزة للعمل في التدريس.

وقد شعر بالارتياح عندما عرف أنني لم أكن اخطط للذهاب إلى الكويت.

وبعد خروجنا من السجن تزوجنا، وعشت معه أكثر من اثنين وعشرين عاما، وأنجبنا دالية ومليكة وتوفيق.

لما حكت صهباء حاملة الجمرة

مشوار المناضلة صهباء البرغي قصة حياة فتاة فلسطينية جامعية مثقفة، رفضت أن تأخذ الحياة على أنها قضية سهلة، تعليم وزواج وإنجاب، إنها ابنة فلسطين، ثمرة من ثمار المد الثوري النضالي في فلسطين والعالم العربي، كان قدرها أن تحمل الجمرة وان تسير على درب الأشواك، مناضلة قوية الشخصية،

محاربة لا تخاف ولا تتردد، إيمانها العميق بنفسها وبمبادئها وشعبها دفعها إلى أن تشق طريقها لتكون منارة وقدوة.

الفنانة الفلسطينية نجاح عوض الله تناولت مسيرة صهباء في فيلم تسجيلي مدته تسع وأربعون دقيقة، وهو يسجل ببراعة وصدق مرحلة هامة من مراحل النضال الفلسطيني الثوري، وللمثقفين الفلسطينيين في غزة ومصر.

المخرجة لم يعنها كثيرا كون صهباء زوجة لشاعر معروف، لقد مرت على حياتهما المشتركة مرورا سريعا، جذبتها أكثر صهباء المرأة المناضلة القوية القابضة على الجمر.

صهباء امرأة استثنائية

قدمت الفنانة المخرجة صورة حميمية لطفولة صهباء في حي الدرج في غزة هاشم، غزة القديمة التي يوجد بها قبر هاشم بن عبد مناف جد الرسول عليه السلام. قدمت غزة التي تمثل تجارة البهارات والبخور ومعاصر الزيتون القديمة. وعندما حدثت النكبة عاشت صهباء مأساة اللاجئين بكل جوارحها.

لقد أيقظت هذه النكبة في كيانها مشاعر إنسانية ووطنية، وأشعلت في صدرها جذوة الحقد المقدس على أولئك الذين خطفوا وطنها وشردوا شعبها.

وأستطيع أن أقول إن صهباء امرأة استثنائية بكل المفاهيم، فهي عندما كانت في المدرسة الثانوية كانت شعلة للنشاطات الأدبية والفكرية، وخاصة عندما كانت في مدرسة الأميرة فوقية في القاهرة، وهي امرأة استثنائية عندما كانت طالبة في الجامعة حيث انضمت إلى رابطة الطلبة الفلسطينيين في القاهرة جنبا إلى جنب مع الرئيس أبو عمار وصلاح خلف وزهير الخطيب ود. شوكت الكيلاني وغيرهم، كما كانت امرأة استثنائية عندما تخرجت من الجامعة والتحقت بمهنة التدريس، فقد كانت المادة غير واردة في اهتماماتها، ولو أنها جارت الجو في تلك الفترة لحملت حقائبها إلى الكويت حيث البترول والمال والحياة السهلة، إنها امرأة في صلابة الماس ونقائه وقوته، ولا أدل على ذلك من أن شابة جميلة متفتحة تخاطر بنفسها وتذهب مع خمسة من زملائها بطريقة أقرب إلى التهريب لتعبر البحر وتصل إلى وارسو، وترفع علم فلسطين وتقدم رسالة إلى العالم أن الفتاة الفلسطينية على جانب كبير من الوعي والحضارة وأن فلسطين التي يرفرف علمها في إستاد وارسو أمام آلاف الجماهير وأمام الشخصيات السياسية العالمية، فلسطين هذه موجودة وستعود وها هم شبابها يرفعون علمها في سماء دولة صديقة.

كما أن حاملة الجمرة كانت متميزة في رحلتها الطويلة مع الشاعر المناضل الكبير معين بسيسو، فقد رافقته في حله وترحاله وعاشت عذاباته وأيام اعتقاله، وذاقت مرارة الحياة وشظف العيش سواء أكان ذلك في غزة أو في القاهرة أو في بيروت أو في رام الله أو عمان، كانت رفيقة كفاح وأمينة سر وملاكا حارسا على إنتاج معين بسيسو وقصائده وأشعاره.

وكم في فلسطين من نساء مناضلات يعشن في الظل، وكم فيها من بطولات تستحق أن تكون منارة وقدوة لحواء الفلسطينية الخالدة في كل زمان ومكان.

وما أجمل ما يقوله معين بسيسو معبرا بلسان كل فلسطيني وكل امرأة مناضلة:

نعم لن نموت ولكننا

سنقتلع الموت من أرضنا
هناك هناك بعيدا بعيد
سيحملني يا رفيقي الجنود
سيلقون بي في ظلام رهيب
سيلقون بي في جحيم القيود
نعم لن نموت ولكننا
سنقتلع الموت من أرضنا
لقد أشعلوا في العيون الغضب
نعم لن نموت.. نعم لن نموت.. نعم لن نموت

(2013/6/14)

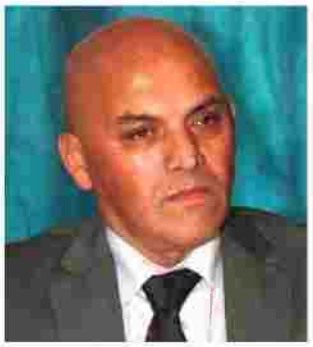

الدكتور سمير الجندي

أدمن حب القدس والكتاب واللغة، فصنع سيمفونية نجاح معطرة بشذا الثقافة.
نشأ وترعرع وسط أبوين فقدا نور البصر، فأهدى نور البصيرة لكل الناطقين بالضاد.
ما أضيع الحياة بلا رسالة! رجل فرد أدى رسالة تنوء بها الحكومات
فأثبت أن العزيمة أقوى من كل سلاح.
من وحي دير ياسين الثكلى عبّد من الألم والدموع والدماء طريقاً إلى النور والحرية
فالقراءة هي المستقبل.
هناك آلاف ممن يحملون الدكتوراه والماجستير
ولكن ليس هناك إلا فرد واحد تحمل مسؤولية نشر الكتاب.

بين نور البصر ونور البصيرة

ما كاد الصبي الصغير يفتح عينيه على حقائق الحياة من حوله، حتى ولد نفسه في وضع غير عادي، منذ نعومة أظفاره في أول مشوار حياته وهو يخطو خطواته الأولى ليتحسس طريقه إلى النور، وجد نفسه في تحد قدري مع الحياة.

وما كاد وجدانه ينضج ويستوعب، وما كاد عقله يفهم ويعي، وما كادت عواطفه تلتهب وتنضج، حتى أدرك أي مأساة أحكم القدر خيوطها حول حياته ومستقبله.

وسرعان ما جند كل طاقاته وقدراته ووعيه، ليستوعب ما حوله، ويدرك أن قدره أن يسير على الشوك، وأن يشق طريقه في الصخر.. وأن يتحدى القدر الذي ذهب بنور بصر والديه، ليهدي نور البصيرة إلى كل من حوله وما حوله.

لم يكن للمرارة أي وجود في حياته، ولم يكن السخط عاملا من عوامل تكوين شخصيته، ولم يكن الإحساس بالظلم هو الذي فجر فيه طاقات التحدي والقوة. تقبَّل قدره وظروفه وحياته بنفس رضية، وأعصاب هادئة وطمأنينة واثقة، فتح صدره للتحدي واستنهض إرادة وعزم الرجال مرددا قول الشاعر:

"مشيناها خطى كُتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها"

مستلهما قول أبي العلاء المعري:

"وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل"

لم يشعر الصبي سمير الجندي بأن القدر ضده، وبأنه يواجه حائطا مسدودا، وطريقا مغلقا، لم يبكِ، ولم يتخاذل، ولم يتراجع، ولم يتوسل عطفا أو تشجيعا.

لقد عرف موقعه.

وأدرك كل ما حوله.

واستعد بروح الإنسان المتوثب القوي الصابر.

وردد بينه وبين نفسه:

"أنا لا أشكو ففي الشكوى انحناء وأنا نبض عروقي كبرياء"

في رحاب الأقصى الأسير

ولد سمير الجندي في مدينة القدس، في حارة الشرف بالبلدة القديمة يوم 1958/11/29، ودخل معترك الحياة الإنسانية منذ فترة طفولته وصباه الباكر، وعانى كثيرا من شظف العيش وقسوة الأيام، ولكنه واجه التحديات الجمة من أجل المحافظة على هوية القدس.

لقد ولد لأم وأب ضريرين من قرية دير ياسين المقدسية، وحقق ذاته وأثبت كيانه وهويته ككاتب وأديب وشق طريقه وسط الزحام الى صفوف الصفوة، وتلك إحدى معالم العبقرية كما يقول العالم الايطالي لومبروزو: "إنَّ العبقري هو ذلك الإنسان الذي يواجه ظروفا استثنائية، ويكون موسوما بصفات غير تقليدية". كأن يكون شديد الطول كعمر بن الخطاب، أو أن يكون شديد القصر كعمرو بن العاص، أو أن يكون أعسر كنابليون، أو أن يكون ممن يعانون من عاهة هامة مثل السمع كما عند بتهوفن، أو البصر كما عند طه حسين، أو أن يكون غزير الشعر، أو نادر الشعر، أو مميزٌ في ملامح وجهه وأنفه، أو أن تكون ظروف حياته غير تقليدية، هنا تجد العبقرية موطنا دافئا للنمو والتكامل. ولا شك أن نشأة سمير الجندي بين أبوين كريمين ضريرين جعلته هدفا لأريج العبقرية وعطر المعاناة ومشقة التربية والتعليم والنشأة ومن ثم التفوق.

عانى سمير مع والديه قسوة اللجوء والفقر وهما على بعد مشوار قصير من قرية القلب والروح والذكريات موطن العز والسعادة والحب قرية دير ياسين، حيث طُرد الأبوان والأسرة بقوة السلاح الغاشم ليستقرا على أطراف القرية الوادعة في أحضان القدس الحبيبة.

خروج الأبوان على أثر أحداث عام 1948 قسرا، كما بقية العائلات الياسينية وعرف إحساس اليتم والمرارة وهما يحرمان من قريتهما الحبيبة الواقعة على طرف مدينة القدس.

شجرة سرو وحيدة

قرية دير ياسين من القرى الصغيرة على طرف القدس، ولم يكن لها مواقف عدائية صارخة في التصدي لحركة العدوان اليهودي، ورفض كبراؤها أن تستخدم أراضي القرية كقاعدة عدوانية لمهاجمة

اليهود، لقد مدوا أيديهم بالسلم لجيرانهم، ولكن ذنبهم الوحيد كان هو أنهم اعتزموا العيش فوق أراض أرادها اليهود لأنفسهم.

كانت دير ياسين سنة 1948 قرية مزدهرة فتانة ذات علاقات منتظمة في الميدان التجاري مع كل من حولها، وكان عدد سكانها لا يزيد عن بضعة آلاف. وكانت على علاقة مع قرية الخربة وعين التوت. وهناك دلائل أثرية تشير إلى أن هذه المناطق كانت آهلة بالسكان، ومن هذه الدلائل وجود حيطان ومناظر وخزانات وقبور حتى هذه اللحظة ولا تزال هناك منازل قائمة في معظمها على التل، وقد ضمت إلى مستشفى إسرائيلي أقيم هناك للأمراض العقلية، حيث أنشئ في موقع القرية.

وتستعمل بعض المنازل التي تقع خارج حدود أراضي المستشفى لأغراض سكنية أو تجارية أو كمستودعات، وثمة خارج السياج أشجار خروب ولوز وبقايا جذور أشجار زيتون تحف آبار عديدة بالطرف الجنوبي الغربي للقرية. أما مقبرة القرية القديمة الواقعة شرقي الموقع فهي مهملة وتكتسحها أنقاض الطريق الدائري الذي شق حول كل القرية، وما زالت هناك شجرة يتيمة واحدة لسروة باسقة قائمة وسط المقبرة حتى اليوم.

يا ويحهم نصبوا منارا من دم

في فجر يوم 9 ابريل 1948 دخلت قوات (الارغون) من شرق القرية وجنوبها، ودخلت قوات (شتيرن) من الشمال ليحاصروا القرية من كل جانب ما عدا الطريق الغربي، حيث يفاجئ السكان وهم نائمون، وقد قوبل الهجوم بالمقاومة في بادئ الأمر، وهو ما أدى إلى مصرع أربعة وجرح أربعين من المهاجمين الصهاينة، ولم يكن المهاجمون كما يقول الكاتب والمؤرخ الفرنسي باتريك ميرمسيون قد خاضوا قبل تلك المواجهة المعارك، فقد كانوا يفتقدون إلى المهارة والخبرة ولذلك فقد كان من اليسير عليهم إلقاء القنابل وسط الأسواق المزدحمة دون مهاجمة القرية التي هبت تدافع عن نفسها، لذلك لم يستطيعوا التقدم أمام تصدي أهل القرية وصمودهم وبسالتهم في الدفاع عن قريتهم.

ولمواجهة صمود أهل القرية، استعان المهاجمون بدعم من قوات (البلماخ) في أحد المعسكرات بالقرب من القدس، حيث قامت هذه القوات من جانبها بقصف القرية بمدافع الهاون لتسهيل مهمة المهاجمين، ومع حلول الظهيرة أصبحت القرية خالية تماما من أي مقاومة. فقررت الارغون وشتيرن استخدام الأسلوب الوحيد الذي يعرفونه وهو استعمال الديناميت وتفجير كل ما يواجههم، وهكذا استولوا على القرية عن طريق تفجيرها بصورة عنيفة، وبعد أن انتهت المتفجرات لديهم قاموا بسحق كل من في المكان من عناصر المقاومة عن طريق القنابل والمدافع الرشاشة، حيث كانوا يطلقون النار على كل ما يتحرك داخل المنازل من رجال، ونساء، وأطفال، وشيوخ. وأوقفوا العشرات من أهل القرية إلى الجدران وأطلقوا النار عليهم بدم بارد.

وفي دقائق وفي مواجهة غير مسبوقة تحول رجال وفتيات "الارغون" و"شتيرن" الذين كانوا شبابا ذوي مثل عليا إلى جزارين يقتلون وينسفون ببرودة وبطريقة جنونية مثلما كان جنود قوات النازية يفعلون.

بانوراما سمير الجندي

كان ترتيب سمير الجندي بين إخوته الابن البكر بين خمسة عشر ولدا وبنتا أنجبهم الوالد من زوجتين، وكانت أم سمير هي السيدة ميسر الحاصلة على دبلوم في الأدب الانجليزي.

أما والده فكان يعمل في جمعية المكفوفين العرب في القدس، وتقع هذه الجمعية في طريق الآلام، ومن ثم أصبح الوالد مديرا لهذه الجمعية.

كان الوالد الشيخ يجيد اللغة العربية، وكان بارعا في ترجمة الكتب إلى طريقة "برايل". وقد اعتاد سمير منذ أن كان صبيا صغيرا أن يقرأ لوالده أمهات الكتب ليقوم الوالد بكتابتها وإعدادها لتلائم المكفوفين.

يقول د. سمير: وهذا العمل الشاق الذي كنا نقوم به أنا والوالد، غرس في نفسي حب القراءة والمعرفة، وعلمني الصبر والالتزام وصقل شخصيتي وجعلني أمارس الحياة بجد ودأب ومثابرة، فلم تكن سنوات الصبا الغض والطفولة البريئة سهلة ميسورة أو رخية هانئة بالنسبة لي كأي طفل آخر، بل عرفت الجد والعمل الدؤوب المتواصل منذ نعومة أظفاري.

عرق الثقافة وأريج الأدب

قرأت لوالدي عشرات الكتب من الأدب الروسي والأدب الفرنسي والانجليزي، وقرأت عليه روايات نجيب محفوظ ويوسف إدريس ومحمد عبد الحليم عبد الله وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي، وهكذا جمعت في مرحلة مبكرة من حياتي بين عرق الثقافة والكد والعمل، وأريج الأدب وعصارة فن الحياة فأفدت واستمتعت وأمتعت، وذلك كله بفضل الله وبفضل ورعاية والدي.

كان والدي يجيد تلاوة القرآن، وكان عاشقا للغة العربية، محبا للثقافة والفكر والأدب، وكان يقوّم لساني ويصحح أخطائي ويتحفني بملاحظاته اللغوية والنقدية والبلاغية ونحن نعمل معا.

تلك لحظات دافئة حميمة رائعة، قد لا تعثر عليها بين أب وابنه إلا في النادر القليل حيث الأب الشيخ المثقف يكتب ما يمليه عليه ابنه الصبي اليافع، وينكبان معا على تراث العباقرة يقرآنه ويعدانه ليكون مادة مقروءة لكل من فقد نعمة البصر.

ورغم شظف العيش، وقسوة الأيام، وقلة ذات اليد فقد انتقلنا من حارة الشرف إلى حارة السعدية، وتواصل مشوار حياتي الدراسية من المدرسة العمرية، إلى مدرسة دار الأيتام الإسلامية، ومن ثم إلى دبلوم التربية الرياضية ثم دبلوم الفنون، وقد عملت في التدريس فترة ولكن عشقي وطموحي للغة العربية دفعاني إلى الحصول على درجة الماجستير من جامعة القدس، ومن ثم حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة أم درمان في السودان.

تأثرت في حياتي المدرسة بمعلم اللغة العربية الأستاذ خليل الحسيني، والشيخ المناضل ياسين البكري.

ولكن الشخصية التي أثرت في حياتي وصقلتني وأمدتني بالقوة والصلابة، والثقافية والوطنية والرجولة كانت تتجسد في والدي أطال الله عمره.

سمير الجندي مؤسسة في رجل

د. سمير الجندي طاقة وطنية خلاقة انضم إلى حركة فتح منذ العام 1970 وأمضى سنتين في المعتقل، إنه غرس أبيه، ثمرة من ثمار العمل الجاد المتواصل منذ ريعان الصبا، نشأ محبا للناس، ودودا، متعاطفا، فنانا، أديبا، كاتبا، رياضيا، قائدا نقابيا وأستاذا جامعيا. كان في حياته كالنحلة يطير من زهرة إلى زهرة ومن حديقة إلى حديقة يجمع جنى الحياة وشهد النجاح.

إن لذة الحياة لا تكتمل إلا إذا تحققت لذة الانجاز؛ لذلك كان حضور سمير الجندي في نشاطات وهوايات واهتمامات عديدة دستور حياته ومبدئه في الحياة.

وهو شديد الاعتزاز بمؤلفاته وكتبه وهي على النحو التالي:

الطوفان (2006)، نبضات (2008)، خلود (2009)، باب العامود (2011)، الرواية الفلسطينية والتراث (2011)، درج الطابونة (2012)، حوش الشاي (2013)، حواء في دبي (2013)، المنهج الأسلوبي بين النظرية والتطبيق (2013).

القدس في وجدانه وأدبه وحياته

ولا شك أن سمير الجندي عايش مأساة فلسطين عندما تعرضت أسرته للطرد من ديرياسين ومن ثم فقد اكتوى بنيرانها، وشب في بيت أبويه وبين أفراد أسرته وهو يسمع هذه التفاصيل المؤلمة سنة بعد أخرى ومرحلة بعد مرحلة ارتوى وجدانه وفكره وعواطفه بتفاصيل الدم والجرائم والقتل والدموع والتشريد وظلت هذه الصور ولا تزال ماثلة أمامه طوال سنوات حياته محدثة جرحا عميقا ما فتئ ينزف دما وجراحا وألما، ومرارة وثورة على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وانعكس ذلك في كل ما كتبه وأبدعه بعد ذلك أدبا صادقا مستمدا من معين التجربة الحقيقية.

عاش سمير في البلدة القديمة من القدس، عاش فيها جارا للأقصى الأسير، ونما وترعرع في أزقتها وعلى أرصفتها وحفظ كل زاوية فيها، ودشن لكل حجر وشجرة وزهرة وفراشة فيها مخطوطا على جدران قلبه، سكنت القدس زهرة المدائن كل جارحة من جوارحه، وعاشت في وجدانه، حفظ تاريخها ومعاركها ومعالمها، وعرف حاراتها وأزقتها وشوارعها، عاشت في خلايا روحه وعقله وقلبه، ويتجلى ذلك الحب بصورة واضحة عبر كتبه ومؤلفاته ورواياته، فقد جاءت من خلال تفاصيل وأسماء كل ما عاشه وحفظه والتقاه في زهرة المدائن الخالدة، بل إنه يصرح بأنه إنما كرس مشروعه الطموح الرائع في إنشاء دار قومية للنشر في فلسطين إنما هدفه الأول تخليد القدس وإصدار عشرات المئات من الكتب والمؤلفات التي تعبر عن انتمائه وحبه لهذه المدينة الخالدة.

وهذه الظاهرة تلتقيها في شعر "عرار" شاعر الأردن مصطفى وهبي التل الذي يمتلأ شعره بذكر الأماكن والقرى والمدن والخرب والخرابيش والعشش والأنهار والنهيرات والأودية الأردنية كما تجد فيه أسماء النباتات والأزهار والمرتفعات والتلال والروابي والأشجار وعيون الماء ومضارب خيام البدو وخرابيش النور، كما يفيض عاطفة وحبا نحو البيئة الأردنية بكل تفاصيلها وتضاريسها، ما يشكل ظاهرة فنية بديعة تعبر عن التحام وتوحد ذاكرة الشاعر بالأردن.

كما أن نجيب محفوظ عشق الحارة المصرية بصورة صادقة ونادرة، فأغرق رواياته بتفاصيل المكان وعبقه وتاريخه، وأكثر من ذكر التفاصيل الصغيرة عن ناس وشخصيات الحارة المصرية رجالا ونساء، فبرهن بذلك على علاقة شجن وحب وارتباط عاطفي بالحارة المصرية.

وذلك ما نجده في ثنايا كتابات سمير الجندي. ان حبه للقدس جعله حريصا على ذكر أسماء الأحياء المقدسية بشوارعها وحاراتها وميادينها، ومساجدها وكنائسها فاستحضر تاريخها واستلهم وقائعها وتاريخها واستوحى منها رموزا فنية رائعة بطريقة جذابة من خلال رواياته ونصوصه الأدبية لعلها تترك بصمة في

ذهن القارئ لأدبه وبذلك تصبح القدس خالدة في الصدور والأعماق والوجدان بحيث لا يمكن محو وجودها وكيانها أو تشويهه عبر الاستيطان أو غيره من الوسائل العدوانية.

عاشق الكتاب

في حياة كل أديب موهوب أو شبه موهوب وفي حياة كل مؤلف أو كاتب أو مفكر مساحة واسعة من عشق خالد للكتاب والورق والمؤلفات والدوريات والمخطوطات، وهذا العشق هو بداية المشوار لدى كل صاحب موهبة مما نجد له صدى واقعيا بصورة واضحة في حياة سمير الجندي الذي عشق الكتاب منذ طفولته، فقد كان محبا للقراءة والثقافة والإصغاء إلى الحواديت والقصص وكان ميالا بطبعه لكل ما فيه نكهة الأدب وشذا الخيال وأريج البطولة، كان مدمنا للقراءة وعشق الكتاب:

"أنا من بدل بالصحب الكتابا لم أجد لي صاحبا إلى كتابا"

ذلك ما يقوله أمير الشعراء أحمد شوقي، وهو ما يؤمن به سمير الجندي سلوكا وعملا ومنهجا، وهو ما نادى به المتنبي عندما قال:

"أعز مكان في الدنيا سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب"

عشق الكتاب واتخاذه رفيقا، وصديقا، ومؤنسا، وناصحا، ومعلما ومرشدا وجدناه منذ فجر الثقافة العربية في وصف الجاحظ للكتاب، وكان سمير صادقا مع نفسه، فالصداقة التزام وسلوك وحب وعمل، وعشق سمير الجندي للكتاب تجسد في عمل ثقافي وحضاري فريد رائع، عندما وجد ان الكتاب في فلسطين موضع ابتذال وامتهان، وأن المؤلفين والكُتّاب والشعراء وعشاق الأدب الرفيع والثقافة الأصيلة يفتقدون إلى المؤسسة الأم التي تحتضن ثمرات أفكارهم وفيض وجدانهم لتجسده في كتب ومؤلفات تخلد الفكر وتخلد فلسطين وتخلد العمل الثقافي الرائع.

إن أروع ما في الكتاب أنه سلعة غير استهلاكية، وأن قيمته كالذهب الأصيل تظل خالدة، فالكتاب تشتريه وتقرأه أنت ويقرأه والدك ووالدتك وكل أفراد أسرتك وكل أصدقائك وتذهب ويذهبون وتطوي الأيام كل الأحياء ولكن الكتاب يبقى خالدا يشع نورا وذكرى وفكرة حافظا قيمته المادية بل إن قيمته المادية تتضاعف وتصبح أكثر ثراء كلما ازدادت الأنظار والألباب والعيون التي تعاملت معه واقتبست من نوره وخبرته وأفكاره وعلمه.

الطموح والأمل

بفكره وثقافته وموقعه كأستاذ محاضر في الجامعة وكاتب وأديب شعر بان عليه أن يقدم لوطنه فلسطين عملا رائدا، فقد كانت فلسطين تتطلع إلى غد مشرق والى حياة كريمة والى ثقافة ووعي لتبني نفسها وتزرع هويتها تحت شمس الأمم عزيزة شامخة. فكان هذا الطموح لا يتحقق إلا بالكتاب، الذي هو وسيلة العلم والحضارة والوعي وهو الهوية والسلاح الحقيقي والخندق والرسالة والهدف والأمل للانتصار على الخصم.

ولكنه غائب عن الساحة الفلسطينية، عشرات الجامعات في بلادنا، ومئات الكليات وآلاف المدارس ومراكز الأبحاث والمؤسسات الإعلامية وقوافل من المؤلفين والكتاب والباحثين والأدباء والشعراء ينتجون ويبدعون ويتألقون وليس هناك دار نشر واحدة في فلسطين.

هذه هي الحقيقة المؤلمة.

بل هذه هي الحقيقة المؤسفة.

محاولة فردية واحدة تذكر للراحل جميل أبو عرفة الذي انشأ دارا للنشر بمساعدة خليل الوزير "أبو جهاد"، وكان هذا الزميل الصحافي رائدا في هذا المجال ولكن مؤسسة أبو عرفة للنشر انطوت برحيله ولم توجد بعد ذلك أي محاولة حقيقية للنشر إلا محاولة اتحاد الأدباء للشاعر المتوكل طه ولكنها أيضا وقعت أسيرة الديون والأعباء المالية والتخطيط الطموح غير العملي ما أدى إلى توقفها تماما.

وها هو الدكتور سمير الجندي يتقدم الصفوف بثقة وبإخلاص، بقليل من المال وكثير من العزم وبرؤية وحكمة وأسلوب عملي يتقدم لنشر الكتاب الفلسطيني محاولا أن يحقق المعادلة الصعبة فينشر الكتاب ويتواصل النشر دون أن يصطدم بذلك الحائط المسدود ألا وهو "المتطلبات المادية".

لقد أدرك الدكتور سمير الجندي أن في فلسطين ثورة، بل إنها أعظم ثورة في التاريخ المعاصر، وفيها كوادر وعقول وشوامخ في الاقتصاد والفن والأدب والسياسة، وبين أبناء شعبها من يملكون الملايين وربما المليارات، وهناك نهضة عمرانية واقتصادية شاملة، مشاريع للبناء وإقامة العمارات والأبراج في كل مكان، ثقافة الاسمنت تغزو كل شارع وحي ومدينة والعمران والتأسيس في كل مكان وفي كل اتجاه، مئات المصانع لإنتاج كل ألوان المآكل الطفيلية، وهناك جامعات تؤسس وكليات تقوم، ومدارس تبنى ومحطات إذاعية وفضائيات ومسارح وملاهي وقصور ثقافة وغير ذلك. ولكن ليس هناك دار نشر واحدة، تدافع عن الحضارة والهوية الفلسطينية وتنشر الثقافة القومية والفكر النضالي والتراث العربي الفلسطيني الأصيل، ليس هناك دار نشر واحدة تنشر درر الفكر والإبداع وتعيد بعثها حية نابضة لتشهد ان فلسطين حضارة وقيمة ووجود وكيان.

وفي نفس الوقت تمد أياديها البيضاء لتنشر ما تبدعه العقول الفلسطينية في العلم والفن والأدب والسياسة والفكر والثقافة والتربية، ليس هناك دار نشر واحدة لنشر آلاف الأبحاث التي تبدعها العقول الفلسطينية عبر عشر جامعات فيها أكثر من مليون طالب وطالبة وأكثر من عشرة آلاف باحث ومفكر.

من هناك جاءت خطوات سمير الجندي الرائدة، أدرك المأساة واكتوى بنارها، فهو أولا وأخيرا مؤلف وكاتب ومبدع وعاشق للكتاب، ولا يحق له أن ينعم بالسعادة وان يشعر بوهج التفوق وألق الفرح إذا لم ينتج كتابا، كتاب له عنوان يقول إنه طبع في فلسطين وأن مؤلفه ابن فلسطين وأنه يدافع عن فكر وقضايا وإبداع فلسطين. إلا ما أرخص الحياة إذ تمضي بدون رسالة، وما أشقانا جميعا إذا كنا نفرط في أعظم القيم من أجل حسابات مادية زائدة، أن معطيات النشر تشكل عقبة، تشكل سدا في وجه من يريد أن يكسر هذا الإخطبوط من الجهل والماديات والصعوبات التي تتلاحم وتتكاثر لتصنع سدا عاليا في وجه النور والثقافة والفكر، لكن فلسطين ليست عقيما فهي قادرة على أن تنجب الرائد الذي يتخطى هذا السد.

أنموذج مصري مشرف

عندما وجد رائد الاقتصاد المصري المعاصر طلعت حرب أن الاقتصاد المصري لا يمكن أن يزدهر إلا بوجود مؤسسة اقتصادية مستقلة بادر إلى إنشاء "بنك مصر" الذي تبنى مئات المشاريع الاقتصادية المصرية الوطنية، والتي كشفت عن هوية مصر وكيانها وشخصيتها.

الرائد يضع عينه على ما تحتاجه أمته، ويساهم بكل طاقاته وقواه ليقدم لها مفردات الحضارة والتفوق والوجود.

ولا أقول إن الكتاب مشروع اقتصادي استثماري ينهض بفلسطين لكنه قادر على أن يقدم المعطيات والزاد الفكري والأدبي والعلمي ليصنع بناة الاقتصاد في كل موقع وفي كل مكان. وفي هذا المجال نستذكر القصة الطريفة التالية التي تقول إذا أردت أن تطعم جائعا لوجبة واحدة فقدم له سمكة، ولكن إذا أردت أن تطعمه طوال حياته فعلمه الصيد، فالكتاب هو الذي يعلمنا كل مفاهيم الحياة وهو الذي يبني الحضارات والأمم. وكما نهض "بنك مصر" بقيادة طلعت حرب يمكن أن تنهض الحركة الثقافية الفكرية على يد سمير الجندي ولا عجب فان الرائد لا يكذب أهله بل يرصد ويتأمل ويدرس ويقرر ويعمل.

وأين الملايين؟

من المؤكد أن أبناء فلسطين في الداخل وفي الخارج حققوا على المستوى الاقتصادي العالمي نجاحات باهرة، وهناك ثروات عديدة يمتلكها الفلسطينيون، وأمامهم فرصة استثمار رائعة في إقامة مؤسسات تعنى بالنشر لان هذا المجال لا يزال بكرا وان إقامة مؤسسات من هذا النوع لهي أكثر جدوى وأهمية من إقامة المستشفيات أو الفنادق أو حتى المصانع. وإذا أردنا أن نبني فلسطين يجب أن نتنبه إلى هذه الحقائق وهي أن إقامة المؤسسات شرط أساسي لتجسيد هوية الدولة. ففي المجال الطبي على سبيل المثال لدينا كفاءات من أروع وأعظم الكفاءات الطبية سواء على مستوى الجراحين أو في الطب العام أو في التخصصات المتعلقة بالقلب والدماغ، ورغم ذلك فإننا لا زلنا نفتقر إلى مستشفى واحد على المستوى العالمي التخصصي ولا زلنا نبذر أموالنا في مستشفيات عمان وباريس والقاهرة وتل أبيب.

وهو ما نفعله تماما في حقل الثقافة والأدب والفكر والعلم حيث لدينا أعظم الكتاب والمؤلفين والمبدعين ولكننا ننفيهم إلى عواصم مجاورة وإلى دور نشر أجنبية.

لقد فهم سمير الجندي الحقيقة البديهية التي تقول في البدء كانت الكلمة، كما جاء في الإنجيل واقرأ كما جاء في القرآن الكريم.. ففي هذه الكلمة سر الحضارة والتقدم والحرية.

(2013/7/25)